رواية

يوسف القعيد

أطلال النهار

صباح أبيض كالحليب

ــ ١ ــ

كنتُ في البيت عندما أتاني صوت المدير. عرفته من بصمة صوته التي لا تخطئها الأذن، كان بجواره المخرج، فهمت ذلك من تدخله في بعض التفاصيل كعادة المدير، دخل في الموضوع مباشرة.

ــ ما رأيك في تحقيق ميداني عن النصر الأكيد؟

كان يشرح بسرعة. وكانت ملاحقة كلماته تتعبني، قال: إن المطلوب تخطيط للمشروع الذي تقدمت به " يوم النصر وما جرى فيه".

عن أي المشروعات يتحدث المدير بهذه الطريقة الاقتحامية؟

ما أكثر المشروعات التي نقدمها، وتنزلق مع الأيام هاربة مبتعدة. ألا يعرف المدير أن النسيان أهم ما فينا؟ الرءوس صناديق فارغة وكل ما في العقل يتآكل.

حاولت أن أُوقِفه:

ـــأنت لسة فاكر؟

في نبرة استعراضية، قال: إن ذاكرته من حديد وإنه يدون أوراقا بما يقوله، تذكرت، دعكت جبهتي، قلت:

ـــقصدك مشروع حروب مصر الأخرى؟

رد فورا:

ـــبرافو، أول ذاكرة نسائية قوية.

كدت أحييه، قدرته على حفظ الأوراق في التوابيت، لابد بأن تثير الإعجاب، ألسنا أبناء الفراعنة؟ كان أهم ما قدموه للبشرية مجرد قبور، مشروعات للآخرة. قلت له: إن كل شيء قد تغير، الزمن الذي قدمت فيه المشروع، أصبح الآن ماضيا تاما. عندما كتبته كان عن يوم النصر الأكيد، بعد ذلك بعامين، كان قد ارتدى اسما آخر: أصبح يوم الاغتيال؟

سألته ماذا يريد: النصر أم الاغتيال؟

قال لي: إنني لم يؤخرني ويجعلني في آخر كل الطوابير دائما سوى هذه الفلسفة التي توجع الرأس، وتتعب القلب. أكد لي أن المطلوب هو تحقيق ميداني للمشروع القديم عن يوم النصر بعد عشرين عاما، نحن الآن بعد سبع عشرة

سنة، غدا تحل الذكرى، إما أن نعيد خلق اليوم كما كان منـذ سبعة عشر عاما مضت، أو اليوم الذي سيأتي بعـد ثـلاث سنوات. المهم أن يكون اليوم هو البطل، وفي جميع الأحوال، فإن ثلاثة أعوام تفصلنا عن اليوم، المفروض عرض فيلمـك فيه. وهي فترة كافية لإنجازه. إن الموضوع سيصبح أكثر من مثير وسينفذ تحت عنوان كبير هو: من يذكر تلك الأيام؟

ـــ موافقة؟!

قبل أن تخرق طبلة أذني خبطة رزاع سماعة التليفون في مكتبه أسرعت بالاعتراض:

ـــمش موافقة.

ضحك كعادته:

ـــالاعتراض على الموضوع مـن حقـك. ولكـن الاقتراب من النصر المؤكد بالجدل الذي لا أول له ولا آخر، خيانة للوطن.

لم نكن قد اتفقنا على فيلم ولا يحزنون، كل ما حدث أنني كنت قدمت ملخصا شديد التركيز بمحاولة رسم صورة تذكاريةللناس في هذا اليوم البعيد. والنظر إليهم بـالوعي الذي تكون بعد عشرين عاما مرت على الحدث. وأنا الآن لا

أذكر متى تم هذا؟ كل ما في الذهن ضباب بعيد لا يبرز منه أي شيء محدد. عصرت ذهني. بدأت تطفو على السطح بعض التفاصيل، طلبته من جديد قلت: إنني كنت أنوي تقديم حياة الناس. كل الناس.

ـــ ماذا تقصدين؟!

ـــ من القاع للقمة وما بينهما.

ـــ أوكي.

ـــ من باب الحديد حتى باب المليار.

ـــ جو أهيد.

كنتُ في المنطقة الرمادية. كل ما حولي يضغط على الحواس، لدرجة تفيض على الحاجة، ربما وصل الأمر إلى الحصار. ومع هذا عند البحث عما نريده لا نجده، وإن عثرنا عليه لا نستطيع الوصول إلى نقطة النهاية. كل ما حولي مشاوير، مشيت الخطوات الأولى منها، أما الوصول إلى النهاية فلا يحدث أبدا. ولا أعرف السبب.

اتفقنا على أن يبدأ اليوم من منتصف الليلة السابقة عليه. حتى لحظة انتصاف الليلة التالية. لن أستعين في البداية وأثناء التحضير بأحد من كاست الفيلم حتى أضمن التدفق

والتلقائية، وأغلق الطريق على التصنَّع والافتعال خاصة أن الموضوع له جانب وطني.

طلب مني المدير أن أُخرج من ذهني كل ما يقوله أقطاب اليسار الأحمر، وشيوخ شباب الذقون والجلاليب البيضاء، فعلى الرغم من كل التناقضات بينهما، إلا أن ثمة اتفاقا ضمنيا على التقليل من جدوى النصر الذي تحقق وتقديم الاغتيال على الإنجاز.

الناس هدفي إذن. ما جرى في ذلك اليوم غايتي، علَّ أن أرسم خطة دقيقة ومحكمة من الآن حتى لا أسير بدون هدف. لن أبحث عن كل المصريين. المهم أن أعكس جوهر حال الوطن في هذه اللحظة الفريدة من عمره.

جمعت أشيائي ووضعتها في حقيبة عمل غير شنطة يدي؛ أوراق رسم، أقلام من أنواع مختلفة. جهاز تسجيل دقيق، كاميرا صغيرة لا يكتشف من يراها إنها كاميرا.

وبدأت أعيش جو المغامرة المثيرة. خرجت من الحالة التي وضعتني فيها المكالمة التليفونية التي لم تكن تخطر لي على بال. عدت إلى يومي أتأمله حتى لحظة المكالمة. كان له تصور آخر. وبرنامج وضعته من الأمس.

كل هذا عشته بوعي جديد. ورأيته بأعين أخرى، سألت نفسي: هل أستمر في يومي السابق أم أتوقف، وأضع نقطة فاصلة بين ما قبل المكالمة وما بعدها؟!

كانت لدي بعض المشاوير السريعة، ثم موعد لدعوة على الغداء مع صديق، تربعت صورته على شاشة ذهني فجأة، وبعدها جاء العبوس، صديق جديد قديم. جديد لأنه مازال يمثل بالنسبة لي علامة استفهام كبيرة، وقديم لأنني أعرفه منذ فترة توشك أن تقترب من العام، وفي زماننا فهذه طويلة بكل المقاييس، ثم إن عمله ليس من النوع الذي يروق لي، المشكلة أنني ما زلت أقول إنه صديق، مع أن مشروعاتنا تسبق كلماتنا في بعض الأحيان.

قلقتُ، تعكّر هدوء الصباح، المفروض أن تغيير موعدي معه سيؤدي إلى إلغاء عدد من الارتباطات الأخرى التي تدور كلها حوله. قريبة منه، أو في أحياء مجاورة له. ذلك أن تعقيدات حياتنا في السنوات الأخيرة. جعلت كلاً منا يقوم بعمل خطة خمسية قبل أن يجازف وينزل من بيته.

وعلى الرغم من أنني كنت أعتبر دستور صداقتنا، وما قد تتطور إليه من احتمالات في المستقبل، ينص على أن

أمامها خطًا أحمر لا يمكن الاقتراب منه. وهو ألا يتدخل في عملي، وإنني لا علاقة لي بما يقوم به، حتى أصون نفسي وأبعدها عن سيل الشائعات التي يمكن أن يجـ ها علي.

البعض يقول أمامي وفي وجهي إن عمله لعنة وأنا مصرة على هذا المبدأ: ما للصداقة للصداقة. أما العمل فهو حكاية أخرى، لكن وآه من لكن هذه، ماذا يمنع هذه المرة فقط أن أذهب إلى موعده حاملةً فوق أكتافي المشروع الذي داهمني بعد الاتصال التليفوني؟ مرة وحيدة لابد أن تكون الأخيرة. هل يوجد في بلادنا من يجرؤ على القول إنه يفعل أمرا ما لآخر مرة؟ إن آخر مرة هذه تصبح سراب عمره. كل مرة تصبح ما قبل الأخيرة، وهكذا..

سأذهب إليه، دون كلمات كبيرة قاطعة عن حكايات المرة الأخيرة وغيرها. لسبب بسيط، إنه الوحيد الذي يمكنه أن يقدم لي دفتر أحوال الوطن في مثل هذا اليوم البعيد. وفي اليوم نفسه بعد سبعة عشر عاما لن أثير أمامه حكاية النصر أو الاغتيال حتى لا يستريب في الأمر.

الوقت هو الضحى، حيث الفراغ العذب والتسكّع بين اللحظات، بدون رغبة في فعل أي شيء. لولا هذا التليفون

المقلق لقضيت الوقت كله في تضييع الوقت، لحدقت في السقف، وشددت رموش عيني. وقمت بإعادة طلاء أظافر يدي وقمي.

أعجبتها الكلمات التي تدور في ذهنها، فأعادت نُطْقها: عينة من دفتر أحوال البلاد وما فيها من العباد وما يجري لهم وبينهم. لن تجدها سوى عنده.

عجيب ما يحدث لها. كانت تناوشها فكرة طي صفحته بعد أن تكتب في ذيلها كلمة النهاية. لأنه ما من شيء يجمعهما أبدا. إن كانت هي في سيولة الماء. فهو النار في ضراوتها. وإن بدتْ قطة فهو الفأر. وهل حدث أن اجتمعت المياه والنيران أو القطة والفأر؟!

سمعت من يقول في طفولتها، إن كانت ذراعك اليمنى ضابطة شرطة اقطعيها إن فعلت هذا تستريحي وتريحي. منذ أن تعرفتْ عليه هي تدرك بحس الأنثى أن كل وجوده مركز بين فخديه. بينهما مناورة مستمرة. ما إن وقع بينهما التعارف، وهما يسيران في طريقين متوازيين، هي تريد البيت والستر والخلْفة وهو يبحث عن مغامرة. تعرف إلى أين يمتد سقف أحلامها. أما هو، فكل تصرف يقدم عليه،

يؤكد لها حماقة الذين يتوهمون أنهم انتصروا في معركة لم يخوضوها أبدا. ولا حتى في خيالاتهم المهووسة.

ـ ٢ ـ

كان الضابط الشاب يستعد لتسليم نوبتجية السهر الليلية، بعد أن استيقظ من النوم، وذهب إلى دورة مياه الضباط، التي ينظفها كل ساعة، المحجوزون في القسم كنوع من العقوبة المفروضة عليهم من ناحية، ولنظافة كل ما يستخدمه السادة الضباط من ناحية أخرى.

اغتسل حضرة اليوزباشي بدر عبد الحق، وغيّر ملابس النوم بالبدلة الميري. نظر في المرآة. رأى انتفاخ جفون عينيه، يبدو كعنوان على نوم طويل. تذكّر أن الليلة الماضية مرت هادئة. كان الوارد إلى القسم فيه من الأمور العادية التي تحدث كل ليلة.

خناقات، مشاجرات، مشاحنات، حالات اشتباه، بلاغات سيعرض الوارد على النيابة، خلال النهار، حيث يتم التصرف في كل حالة على حِدة.

قال الضابط لنفسه؛ إنه سيمسك الخشب حتى لا يحسد هذه النوبتجية. باق من الزمان ساعتان. يشرب فيهما قهوته المضبوطة، ويدخن معها سيجارة الصباح، على الريق، في انتظار أن تمر عليه صديقته " صبرة عابدين ".

يوهم نفسه كلَّ صباح أنها حبيبة القلب، سيتناولان الغداء في مطعم بعيد منزوٍ، مواصلاً محاولة إقناعها أن تذهب معه إلى شقته، وهي تواصل رفضها، ما لم تدخل الشقةوبيدها وثيقة زواج. يضيف هو أن الإشهار والعلنية أهم من كل الوثائق. وما زال يعاني من بعض المشاكل التي تحول دون هذه العلنية.

تقول هي: إنه إن كان من حقه أن يطلب منها الذهاب معه إلى شقته فلا يمكن لقوة على الأرض أن تحرمها من حق الرفض. ويدخلان في مناقشات لا أول لها ولا آخر، تعود بها الأمور أحيانًا إلى بداية البدايات الأولى، ويلوح هو بنهاية النهايات، ولكنه لا يتزحزح عن طلبه بعد أن يضيف إليه زخارف زائفة عن الثقة المطلقة واعتبار المناقشات خطأ أساسي، وتتحصن هي في مكانها قائلة: إن ما تطلبه هو الحد الأدنى الذي لا يمكنها التنازل عنه تحت أي بند.

ما زالت المباراة مستمرة بينهم أن يتحداها ويقول:إنها مثل كل بنات جنسها، يتمنَّعن والرغبة تأكلُهُن في كل لحظة تمنع وهي تقبل التحدي في كل مرة قائلةً:

ــ اللي يغلب نسلُخ وشه.

يوافق فورا ويضيف:

ــ بسكِّينة تلمة عشان يبقى الألم " مضمون ". يتحمل " بدر كل رزالات " صبرة ". لأنه لم يحقق ما يريده وهي تواصل الطريق معه لأن الزواج لم يتم بعد.

بعد رَشْفة القهوة الأولى، التي يتذوق طعم وجودة البن من خلالها ونفس السيجارة الأول، أتاه البلاغان مرة واحدة، يبدو أنه هو الذي حسد نفسه على الليلة الهادئة. فكّر أن يرسل الصول الذي يعاونه في النوبتجية، ولكن الأمر بدا له أكبر من إمكانات الصول.

أحد البلاغين عن حادث وقع في الطريق العام، ويمكن أن يتجمع الناس ويتحول الأمر إلى تجمهر ويتطور إلى ما لا تحمد عقباه.

البلاغ الثاني مثير وحساس وربما يحدث لأول مرة،

ومن شكله أنه جرى لأناس أكابر. ومثل هؤلاء الخلق

واصلون ويعرفون سكان علالي الحكومة وقد يسبب له تكاسله في موضوع يخصهم بعض المتاعب، وربما وصل الأمر إلى التحقيق والجزاء والخصم والنقل إلى كفر أو عزبة بعيدة.

صديقته التي يحاول أن يضحك عليها. ويوهمها أنها حبيبته، ويحلم أن تصبح عشيقته، حتى يخرجها من نافوخه ويخلص من حكايتها وصلت لحظة خروجه من مكتبه.

ابتلع دهشته قبل أن تعلو وجهه، جاءت قبل موعدها بكثير. هكذا هي إما أن تحضر متأخرةً ساعات. وهذا ما تعوده منها منذ بداية حكايتهما. وها هي تأتي قبل الموعد أيضا بساعات. أما الحضور في اللحظة نفسها التي اتفقا عليها فهذا ما لم تفعله من قبل.

لابد أن ثمة سببا قويا وقاهرا دفعها إلى الحضور مبكرة. أقلُّ القليل أنها جاءت لتعتذر عن الغداء. الذي أراد أن يكون حاسما. تذكر أن بينهما اختراعا اسمه التليفون.. لماذا لم تستخدمه؟ مجيئها هكذا وراءه ما وراءه ولكن هل يتساءل حتى يبدو حضورها أمرا مزعجا. إنه لا يملك في كل الأحوال سوى الترحيب بحضورها.

عرض عليها أن تذهب معه، يحقق هو، وترى هي ما يجري من الحوادث الغريبة، والحكايات العجيبة التي لم تجر من قبل في البر كله.

كادت تطير من الفرح، فهو يعرض عليها، لأول مرة الذهاب معه في رحلة عمل، أوشك الفرح أن يتبخر عندما فكرت في أنه من الواجب أن تخبره بما تقول به، حتى لا تبدو أمام نفسها كمن غدرت بمن وثق بها وعرى أمامها حتى قضايا عمله.

إن قالت له لا تضمن ردود أفعاله. ربما استثارت حاسة شمه، وحركت قرون استشعاره. من المؤكد أنها ستخبره، ولكن ليس الآن. لكل أمر توقيته السليم، وهكذا استراحت لهذا الحل الوسط.

تحرك الضابط من القسم، وحوله الجنود والمخبرون، ومن وسطه يتدلّى مسدس يبدو سواده واضحا لأن " بدلته الميري " كانت ناصعة البياض، فلم يكن تغيير اللبس الصيفي بالزي الشتوي قد تم بعد.

اقترب من السيارة وهو يضحك ضحكة جسورة، أجلسها في السيارة، وهو يشعر أنه دافئ المزاج، نظر إليها،

قال لنفسه: إن كل ماء هذا الكون لا يمكن أن يغسل هذه الإنسانة من شكوكها أبدا، حاول أن يصطاد البريق الماكر في عينيها، ولكن البريق بدا مثل الظلال المراوغة لحظة الغسق.

فكر بأي الحادثين يبدأ، وفي لمح البصر قرر أن تكون البداية ببلاغ أولاد الشوارع. حتى يكون الختام مسكًا بما جرى للأكابر في الجانب الغني والفاخر والفاجر من الحي.

في بداية الرحلة، كانت " صبرة عابدين " تتحدث مع " بدر " تتذوق طعم الكلمات قبل أن تنطق بها. كلمة وأخرى وانطفأت الرغبة في الحديث لديها، والقدرة على الاستماع عنده، ذلك أنه الآن حضرة الضابط الذي يتحرك بين جنوده. تلك لحظة عرسه الحقيقية، يشخط وينظر، يأمر وينهي، يمنع ويمنح، لا يوجد ضابط يسمع. إن أنصت للآخرين فإن هذا يقلل من كونه ضابطًا حوله الجنود من كل جانب.

سهمت، سرحتُ، حلّقت مع أفكارها بعيدا عنه لدرجة أنها لم تلاحظ مظاهر الأبلهة والعظمة التي يتعامل بها خلق

االله مع سيارة القسم التي يستقلونها، وهي تمر في الشوارع والحواري، لم يكن ينقص السيارة المهيبة سوى الموكب إياه.

كُنت أفكر، أبحث، أسأل نفسي، من أين تبدأ الكلمات التي تتشكل في روح الوطن المضطربة المشوشة؟ كيف أقبض على الفكرة المراوغة؟

هل أستطيع الوقوف أمام ثقب في الباب أرى منه ضمير البلاد وهو يئن ويتلوى ويتوجع من العذاب؟ ما هو السبيل للإمساك بالوميض العابر لكي أحوله إلى نور باهر ومتصل؟ إن الاستمرار هو الأهم، بل ربما كان التحدي.

من أين ابدأ رحلتي؟ هذا هو السؤال الكبير، وهل يمكن الابتعاد النهائي عن هذا الضابط. لُأحدد نفسي أكثر. كيف تمتد أصابعي في جراح روح البر؟ كيف أشم بأنفي مهانة الوطن وذله اليومي على أعتاب أصحاب الكروش الاطمئنا

ن المتهدلة؟ المعذَّب؟

هل أطارد ماذا أفعل بنفسي؟ هل أحاول أن أشتري حنونًا في الزمان لكي أدهن به الجدار الخارجي لضميري الحزن المتسلل بين أوتار صوتي الذي كان

الذي مضى؟ أنظر في الفرص الضائعة في عمري القصير.

في البرهة والساعة واليوم والأسبوع والشهر والسنة، قبل أن أسأل نفسي: هل سلكتُ الطريق الخطأ؟ وأين هي سكة السلامة؟

أبحث عن الطمأنينة المستحيلة، ولكني ليلة الأمس وفي الكتاب الذي أقرأ فيه، وضعت خطًا تحت عبارة تقول:

" عند مفترق الطرق تُصبح الطمأنينة وهمًا من الأوهام ".

المـْقوسة و َخِـيـ الرجا

كان مشوارها شمسا وغبار ًاورملاً

من الريف هربت، وإلى المدينـة الكبيـرة جـاءت، حاولت أن تتماسك وأن تمُسك حبال الهواء بيديها، كتبت على أجنحة العصافير رسائل لم تصل إلى أهلها، أسلمتها سكة لطريق، تحاول أن تتذكر آخر مرة شاهدت فيها ترعة يجري فيها ماء صاف، وأم الشُّعور تحمم شعرها فيه.

رأت [illegible] يشير إليها، وسـمعته يقـول: الصفصْـافة تستحم. كانت المرة الأولى التي تسمع فيها هذه الكلمة ولـم تكن تعرف سوى أنها أم الشعور.

أول البنْدر الكبير، أصبحتْ فـي حضـن العشـش وبيوت الصفيح، كان نمل الخوف يسبح في عروقها، وعلـى مدد الشوف ما زالت العمارات العالية التي تلامس سماء الله العالية بعيدة. كان الدخَّان يمـلأ الهـواء. والوصـول إلـى العمارات يحتاج ليوم آخر من المشي. والنور يكاد يقفز إلى داخل عينيها.

ولكنها كانت قد تعبت من المشي. تورمت قدماها، وقرصتها بطنها، تعاركت مصارينها الخالية حتى من الهواء والماء. والجوع كافر. زاغت عيناها وزغللت المرئيات فيهما، من كثرة ما شاهدت، هاجمت الأشياء عينيها، عروق المدينة وشرايينها وأوردتها وأناملها مليئة بالناس والعربات والصخب، نشف ريقها، وهد المشوار الطويل حيلها.

كانت دهشتها بلا نهاية إزاء كل ما تشاهده، البيوت العالية التي توشك أن تنطح السحاب، الزحام، كرنفال الألوان، الملابس العجيبة.

حاولت أن تعبر الشارع، سمعت أصوات احتكاك العجلات بالأرض. وتناثرت الشتائم مع تفتفات من يتكلمون. قال أحد ركاب السيارات وهو يعدل نظارته في مكانها:

ـــ لو أن الحكومة وطنية. تحب البلاد لأعادت كل جبوع صايع إلى قريته. ولمنعت كل فلاح من دخول المدينة. ولألقت القبض على كل طفلة تسير بدون أهلها. ويجب أن يكون هناك رسم تسلل ودمغة عبور ومال يدفع عند الدخول وعند الانتقال من حي إلى آخر.

رفع زجاج باب سيارته، وهو يقول:

ـــ في بلدان العالم المتحضرة يفعلون هكذا. لابد من حماية نظافة أهل البنادر من قاذورات أولاد الفلاحين. الذين يصبحون بعد دخول المدن الجميلة أولاد شوارع.

وهو يتحرك سمعت، يجب، لابد، حتمًا، لزمن، لم تفهم كلمة واحدة مما قاله، وإن كانت قد فهمت أنه يهددها لأنها تجرأت وعبرت الشارع من ناحية لأخرى.

أصبحت كشانة مثل فأر أمامه مصيدة، بها قطعة لحم، ووراءه قطة، كانت تتحسر على ما فات، وتخشى ما هو قادم.

عندما جلست لأول مرة منذ أن بدأت رحلتها، بدت لها العمارات العالية، مثل التلال التي عندما تقترب من السماء البعيدة تبدو مائلة وتتلامس مع الضباب النهاري؛ الذي هو جزء من الغبار، وعوادم السيارات ودخان المصانع.

نشف ريقها. هدأ المشوار حيلها. جلست بجوار عربة كانت قديمة. لم يبق منها سوى هيكلها الخارجي فقط. خلعت شبشبها، وضعته على الأرض وكومت فوقه اللفة التي تحملها معها، اللفة والشبشب. سندت رأسها عليهما خوفًا من

ولاد البنادر الذين يسرقون الكحل من العين، كما كانت تقول أمها في القرية البعيدة، كلما شاهدت أفنديا غريبا عنهم.

سندت رأسها حتى تستريح، كان أبوها دائما: إنــه لا الجائع ولا الخائف يمكنه أن ينام حتى لو وقع من طوله، ولا يستطيع أن يصلب حِيله، ولكنه نسى أن للنوم سلطانًا.

غفلت، نامت. أخذت تعسيلة دون أن تدري، وخلاف تخاطيف النوم المتقطعة، رأت نفسها أولاً في شقة، تخدم أهلها، طراوة وأرضية بلاط لميع وجدران ترى نفسها فيها. ونومة في مطبخ لم تر مثل جماله من قبل.

راح منام وجاء " جنينة " واسعة، ورد وزراعة وماء، وسيدها وسيدتها يتفسحان وهي تلعب بالكرة مع سيدها الصغير تكركر معه بالضحكات، وتسابق الهواء وترمح في الريح وبعد اللعب جلسوا للأكل.

صحت من نومها على يد تهزها، كانت اليد خشنة، وعندما بربشت بعينيها لم ترى سوى الشحم المختلط بالشعر المتناثر في الذراع وخاتم كبير من الفضة، وإن كان لونه الأصلي قد تاه:

ــ يا فضحتي.

هبْت فزعة، كان أول طلب لها " قْ" مـاء، حتــى تغسل الغبار المستكن في حلقها. وكان الصبي مستعدا للطاعة والامتثال، وإن كانت لم تطلب منه أشياء كثيرة، ولكنه أجـل إحضار الماء لها، بعد أن يعرف ما هي الحكاية بالضبط؟

كانت أمها تقول دائما، إن نوم البنت أمام الغربـاء، أكبر عيب ممكن أن تفعله، والغريـب كـان صـبيا عينـاه واسعتان، ولكن وجهه صلْب كأنه منحوت من الحجـر، طمأنها، طبطب عليها. زحف وسط البقايا والفضلات، حتـى أصبح في أقرب مكان لها، لمت نفسها، وشدت هدومها، حتى أصبحت بعيدة عنه.

شعرت بالدوخان من الجوع والخوف. لفت الـدنيا ودارت أمام عينيها، طمأنها؛ أحس بدفئها القريب في رئتيه. كان حضورها ساخنًا في قلبه، بدت له الحياة تتسارع علـى شكل أمل مفاجئ لم يكن يتوقعه.

وبدلاً من السؤال والجواب قام، عاد بعد قليل ومعـه بقايا غدائه، قدمه لها في صمت، قال إنها تريد " بق " مـاء، فهي عطشانة. أحضر " جركن " زيت به ماء، نظـرت لــه باستغراب فشرب قبلها منه.

بسملت قبل أن تمد يدها للأكل، وقبلت وجه يدها اليمنى وظهرها وهي تقول:

ـــالحمد الله.

قال لها بحنان بدا غريبا وسط المكان القاسي:

ـــتستاهلي الحمد.

بعد الأكل نظرت له. شعره منكوش، عرُق مرقه، والأفرول الذي يلبسه مبقع بالزيت والشّحم والتراب، كفاه مفلطحتان وكبيرتان ولا تتناسبان مع ذراعيه الرفيعتين، ولا جسده النحيف. وعندما نظرت إلى قدميه خيل إليها أنهما ـــ أي القدمين ـــ جزء من الأرض.

كانت تخاف من ضيق النهار، وعندما اقترب مِرواحه لم تعرف ماذا ستفعل مع قصة الليل الذي لم يأت بعد؟ روح النهار بسرعة. استعدت الشمس لكي تستريح من عناء وتعب اليوم. وكانت عيناها مجهدتين من كثرة السبص والتحديق، وكان وجهها مغطى بفضول مرهق.

خلعتْ ضوء النهار، ولكن الصخب والأصوات ازدادا في الليل. اشتعلت أضواء المساء لمبة وراء أخرى، وحولت ظلام الليل البعيد إلى نهار يلعلط أكثر من النهار

نفسه. ارتدت ثوبا يضوي ويبرق بألوان مختلفة، فكرت أن تمشي، ولكن النهار له عينان. لتبق هنا حتى الصباح الذي تعرفه، خير من المشي في الليل الذي لا تعرف عنه أي شيء الصباح رباح. أحست أن هذا الصبي، ربما كان طيبا، وقد يدلّها على باقي الطريق في الغد.

اقترب الصبي منها وهو يسألها:

ـــ اسمك إيه يا حلوة؟

ارتعشت بالرغبة في البكاء قبل أن ترد عليه. وعندما بحثت عن الرد في عقل بالها، تاه منها اسمها.

أجلت الرد:

ـــ بعدين.

كانت خائفة، وإن كانت لا تعرف مم؟ قال لها إنه لا يوجد معه ما يتعشيان به، وإن كان يمكنه أن يوضب لها نومة مريحة، تحت أي عربية نقل، قال لها إن كل إنسان له غرفة نوم واحدة. أما هو فتحت كل عربية نقل غرفة نوم. له غرف بعدد عربيات النقل الواقفة.

قالت لنفسها، إنه مثّلها مقطوع من شجرة. رد سكَك. فرحت، ولكنها عندما فكّرت في الغد حزنت، لأنه لن يستطيع

عمل أي شيء لها. تصورت أنه سيحملها على كفوف الراحة حتى باب البيت الذي ستعمل وتعيش فيه. فإذا هو نفسه يبحث عمن يحملُه.

بحث في الناحية، حتى وجد سيارة نقل تجر مقطورة وراءها، مركونةً فوق رصيف عريض وطويل. السيارة متحجرة من خلف العجل وأمامه، دار حولها أكثر من مرة. تأكد أن السواق والتباع والشيال، وتباع المقطورة لا وجود لهم. إذن ستبيِ ُتللعربة بحمولتها هنا ولن تتحرك قبل الغد. ربما يسكن من يعملون عليها في المساكن الشعبية القريبة.

عليه أن يشيل الحجر الموجود أمام عجلة المقطورة. نظر إلى العجل الضخم. أول مرة يرى أربع عجلات في كل ناحية، من كثرة مبيته تحت عربات النقل، فهو متأكد أنهما عجلتان في كل ناحية. وهو يفضل عربات النقل لأن ثمة براحا بين العربة والأرض. أما الملاكي والتكاسي والنص نقل، فالمسافة بينها وبين الأرض لا تكفي حتى لأخذ النفس.

فكر أن يحكي للأسطى ما رآه في الغد، ويسأله متى جاء هذا النوع من المقطورات إلى بر مصر لأول مرة؟ وأن يسأله: ماذا لو نامت عجلة في المنتصف؟ كيف يفكها السائق

من أجل لحم الخُرم الذي فيها؟ هل يفك كل العجل؟ أم كيف

يتصرف؟! نظر إلى العجلات الأربع جهة اليمين، والعجلات الأربع جهة اليسار قال في نفسه إن العجلات الثماني يمكنها

أن تفرم طفلة مرة واحدة. وقال:إن سائق هذه الشاحنة الضخمة لابد أن تكون عيناه وسط رأسه، وإلا دهس في كل خطوة عباد الله الغلابة المساكين، الذين يقطعون الشوارع الطويلة والعريضة، كعابي.

لم يحك لها عما دار في عقل باله. نظف المكان بيديه، وأبعد الزلط والطوب، ولم ينتبه رغم أنه صبي ميكانيكي، وهو يتحرك تحت العربة، من الأمام إلى الخلف، أن موتور العربة ما زال ساخنًا بعد.

وهو معها مخدتها، وعليه إحضار مخدة له، ذهب إلى الورشة التي يعمل فيها فأحضر مفتاحا كبيرا قال لها يضحك إن المفتاح يستخدمه كمخدة. وإن كانت مخدة حدادي.

فزعت منه، عندما فهمت أنه يريد أن ينام بجوراها أخذت لفتها وغضبت:

ـــ كان لازم أعف غرضك من الأول.

مدت إصبعها في فمها حتى تَطْرش ما أكلت وشربت. طبطبت عليها كانا معًا، هو وهي، يحتميان من عيون الليل بالخوف:

ــ ما تزعليش يا بت الناس.

قالت: إنها لن تستريح، إلا أن نامت في ناحية، وهو في الناحية الأخرى، فوافق. رتب لها نومة أمام أربع عجلات، وله نومة أمام الأربع التي قبالتها، مع أن العجلة الواحدة تكفي لأن ينام أمام جزء منها، قال لنفسه: براح.

كان يهيم على أطراف أحلامه، ورغباته التائهة بين المنام واليقظة. كان يرغب في سؤال الفتاة، سؤالات كثيرة. ولكنه أجل سؤالاته إلى الغد، الصباح الباكر على الأقل.

كان مشتاقًا معها ولكنها قبل أن تعطيه ظهرها سألته:

ــ أنتَ جن واللا إنس؟ شعرت بوهن السؤال، كان صوتها يرشّح بالعطف

والحنان، والرغبة في البوح.

أشار لنفسه وهو يرد عليها فرحا:

ــ أنا البرنس

قالها، وارتد بصورة غريزية مبتعدا عن النور الذي يطل من عينيها. لأنه كان يعرف أنه يكْذب ولابد أنها ستدرك هذا. قال لنفسه. إنه سيبقى هكذا حتى الصباح، لا يستطيع النوم حتى إن أراد. الفرحة ليست سيعاه، وتسبب له حالة من كرش النفس، كان مرهقًا حتى من السعادة.

قبل أن يأتيهما الّنوم. تناهت إليهما أصوات الأطفال، الذين يلعبون ألعاب تلك الأيام العسكر والحرامية، المسلم والنصراني، السني أبو دقن والفسدان أبو كرش، كان اللعب يتم وسط أكوام الزبالة وبيوت الصفيح وبقايا السيارات، أغمض عينيه، فصارت تأتي إليه في الأحلام شعر أنه ينجذب إليها بطريقة لا يمكنه معها مقاومتها، لقد ناما فوق مهدِ من الغيوم. وليته وليتها ما ناما من الأصل والأساس.

وشْ الفجرية، عندما كان الصباح يتنفس، والندى يسيل على الأشياء طلع إباقِ التريللا من الغزُزة القريبة، وراءه التباع والشيال وتباع المقطورة. كانوا قد مصو فصوص الأفيون وحلقوا مع أنفاس الحشيش، ورغوة البيرة ما زالت طافية فوق سطح جوف كل منهم. تبولوا في الهواء تباروا في ارتفاع خيط بول كل منهم، والمدى الذي من

الممكن أن يصل إليه التبول أمامه. وأخرج كل منهم ريحه. وتراهنوا من الذي يحدث صوتًا أعلى من الآخرين وفي كل الحالات، كسب السائق الرهان الذي لم يدفعه أحد.

فلوس نظر السائق إلى العربة التي كانت جديدة بعشْق. كانت تقوم بأول مشاويرها، وأجرة الحمولة هي أول تدخل جيب صاحبها من عرقها.

قال الشيال: إنه سيشيل الطوب من أمام وخلف العجل، منعه السائق قال له: إن موتور العربية جديد لنج، يمكنها جراها وتحريكها من فوق الطوب، وإلا أعادوها لمن اشتروها منهم. إن ثمنها شقلة كبيرة ولابد من تجربتها جيدا.

قتيلان في الطريق العام

كانوا يعرفون أن الولد هو صبي الميكانيكي، وعندما جاء الميكانيكي اتهمه بسرقة المفتاح الذي كان يضعه تحت رأسه، من الورشة، ليلة الأمس، وقال إنه سيغسلُه من النجاسة قبل أن يستعمله.

أما البنت، فلم يتعرف عليها أحد ولم يذكر أي شخص من الواقفين اسمًا لها.

قال الضابط:

-بسيطة.

سيدون أمام اسمها: مجهولة، وستظل هكذا غير معروفة في أوراقه حتى يظهر لها أهل.

عندما جاء الضابطُ إلى المكان الذي لم يكن نظيفًا، وجد الناس يتجمعون، بصورة جعلتْ وصولَه إلى مسرح الحادث صعبا. طلب من العساكر طرد خلقِ الله من حول

المكان بأسرع ما يمكن.

حرز الأشياء التي وجدت بالقرب من القتيلين، فردة حلق صفيح، وفردة غويشة من البلاستيك، ومفتاح كبير

يستخدم في فك وتركيب أجزاء السيارة، ومخدة تـاه لونُها الأصلي، من البراغيث والبـّق واكتسبت لوناً لا اسم لــه،

وصرة صغيرة لم يعد لها شكلها المستدير، الذي كانت عليـه قبل الحادث.

كان الذباب مـ كوما علـى اللحـم المعجـون بالـدم، ونفايات الطريق، وفضلات الناس التي ما زالت تلمع علـى جزء من أرضية الشارع. كان المكان مغمـورا بالضـياء. والخلق أتوا من كل جزء يحيط بهم، وبقايا الولد والبنت على الأرض مغطاة بورق الجرائد.

الواقفون أجسادهم منتنة، رائحـة عـرق مختلطـة بروائح اختمار بول وتحلل براز وشعور منفوشـة وثيـاب قذرة.

من قبل كان الضابط يتعجب من حب صديقته للكلام. هذه المرة يبدو أنها أكلت قبل حضورها فقط " سد الحنـك " منذ أن تحركا من القسم، وهي صامتة، وصمت النساء.

يخيف.

جمع في ذهنه ما سيكتبه في المحضر الذي سيحرره بالحادث. عين له حراسة على بقايا الجثتين، وهو يقوم بعمله

الروتيني، نظرت صبرة عابدين إلى بقايا الطفلة التي لم يتعرف عليها أحد، همست لنفسها: غزالة شاردة. شعرها الطفولي، الذي كان مسبسبًا، يحجب بقايا وجهها عن ضوء شمس الصباح.

عاين العلامات التي تركها عجل عربية النقل على الأرض، ورسم بالطباشير خطوطًا على الأسفلت، وهو يرسم، اقترب منه شيخ تخين، كرشه متدل أمامه، ومسبحته تصل إلى الأرض. قال إن ما جرى لا يزيد على كونه فعلا فاضحا في الطريق العام، وربما كان انتحارًا بعد الفعل الفاضح مباشرة، فما ذنب سائق العربة الذي هرب بها ولم يمسكه أحد؟

فتح الضابط النوتة الصغيرة التي بيده، دون فيها " فعل فاضح في الطريق العام، اقتربت منه " صبرة عابدين "، نظرت وقرأت ما كتبه. طلبت منه أن يشطب ما دونه، وأن يعدله، وأنه يجب ألا يكون قاسيا مع طفل وطفلة ميتين.

افهمها أنه وصف ما جرى بدقة. قالت إنه أخطأ، والغلط مردود، نفخَ بضيق: قَالُم الضابط لا يعرف الغلط سكته إليه أبدًا، قالت بصوت أكثر عُلوًا من الأول: إن القلم الذي لا

يخطئ لا يصيب، فالخطأ والصوا بمن طبائع خلق الله، رفع إصبعه محذرا: إلا ضابط البوليس.

قال لها: إنه مستعد أن يراهنها أن السيد وكيل النيابة سيتفق معه في توصيف الحالة. وربما وقع عليهما ــ الطفل والطفلة، أو الولد والبنت ــ عقوبة الفعل الفاضح في الطريق العام، أما هي فقد كانت قد فقدت الرغبة حتى في مناقشته.

كانت " صبرة عابدين " تحن إلى كل أطفال الدنيا. ما أن تشاهد طفلاً حتى تشعر بالجرح الذي في أعماقها طريا. تنز الدموع تحت الأجفان. تحلم. تتمنى أن تمنح كل أطفال العالم حليبها الدافئ المسكر.

غمغمة في القلب، نهنهة في الصدر، حزن لا حدود له يهد كيانها نظرت إلى الواقفين يتفرجون، سألت نفسها: أليس هؤلاء الرجال والنساء آباء وأمهات؟ أليس لهم أطفال في مثل سن الولد والبنت؟

التراب سألت عن الولد، وسألت عن البنت، كان صوتها قلوب مثقلاً بالعطف والتفهم، عندما نطقت، مسح صوتها المتراكم فوق المناطق التي ما زالت ناعمة في حابت الواقفين.

هل ماتا جائعين؟ هل كانا عطشانين لحظة مجيء الموت إليهما؟ سألت الواقف بجوارها. بدلاً من أن يجيبها، أشار إلى رأسه. قال: إن هذه البنت جاءها لطف في عقلها. ما دام الموت قد أتى، هل تفْرِق أن يكون البطن ممتلئًا أم خاويا؟

قبل أن ينصرف الضابط قالت له صبرة، لابد أن هناك فاعلاً، ولابد من البحث عنه، بدلاً من الحكم عليهما بهذه الطريقة. كان من الصعب عليها أن تتصور ولو بعين الخيال قسوته المتناهية " فعل فاضح في الطريق العام " كيف؟ كيف؟ كيف؟ هل هناك ما هو أكثر من موتها؟ قال لها الضابط:

ــ لقد نالا جزاءهما.

اشتبكت معه في حوار أوشك أن يتحولّ إلى عراك والمشكلة أن العساكر حوله يرون ويسمعون ويتابعون. طلب من العساكر الابتعاد وتفْريق الناس هربا من الفضيحة والجرسة، خاصة أنها بدأت تتوعد الضابط.

قالت لنفسها:

ــ اللي راح كلب.

نظرت ناحية الأفق:

ـــ واللي جاي سبع.

وكلما تذكرت شكل الطفل والطفلة، توشك أن تَغْرِقَ في طوفان من الدموعِ.

كانت ارتعاشات الروحِ في الطريق إليها.

ظلالُ الطُّيورِ البعيدة

١ ــ ذهب ليس أصفر

كانت سماعة التليفون من الذهب الخالصِ، وكان صاحب البيت قد أكمل عامه التاسع في ديار العرب، يعمل طول النهار، وجزءا من الليل، في ثلاث شغلانات، ويحسب فيما تبقى من الليل، ما جمعه وما أنفقه وما ادخره.

يتوه عقلُه في غابة الأرقام التي لا أول لها ولا آخر. وإن كان لا هدف له سوى إسعاد زوجته وأولاده الذين تركهم في البلد، بدون رجلٍ معهم.

كلما كبرت الأرقام التي ادخرها وارتفع سقف المبالغ التي حولها. قال إنه الثمن الذي قد يساوي غربته عنهم، وعن بلاده، كل هذه السنوات.

أمسكت نازك بسماعة التليفون، التي كانت من الذهب الخالص، وكان يضايقها أنها من الذهب الأصفر، مع أنها سمعت أخيرا إن إحدى صديقاتها قد اشترت تليفونًا من الذهب الخالص، ولكنه من الذهب الأبيض، الذي هو أغلى وأقْيم وأثمن من الذهب الأصفر.

قلن لها، إن الضيوف الذين شاهدوا تليفون صاحبتها، قد تراهنوا، إن كان من الفضة أم الألمونيوم؟؟ وعلى الرغم، من أن الرهان، كان على مبلغ يتعدى ألوف الجنيهات، يصل إلى حضنٍ وقبلة، وربما مضاجعة إن حدث الوفاق.

إلا أن الرهان، لم يكسبه أحد، لأن المفاجأة الحقيقية. جاءت عندما أعلنت الصديقة المتفوقة عليها، التليفون، ليس من هذا ولا من ذاك ولكنه من الذهب.

سألوها في نفس واحد:

ــ ذهب ليس أصفر!

قالت، ولا يوجد في بر مصر سواه، إنه تليفون وحيد.

من يومها، ونازك تنوي أن تطلب من زوجها المتغرب، عندما يتصل بها، إحضار تليفون من الذهب الأبيض الخالص. ولكن على شكلٍ مثير وغريب، ولم يدخل مثله بر مصر من قبل، حتى تتفوق على الجميع، نساءً ورجالاً، ألا يكفيها أنها تعيش محرومة من رجلها كل هذه السنوات؟

كان الليُل قد جاء، وذهب النهار بحره وعرقه وترابه، وكل هؤلاء الناس الذين يملأونه من الفجر وحتى لحظة انتصاف الليل. وكانت نازك قد بدأت تعاني من ذلك الإحساس الذي يكبس عليها، كلما نزل الليل وهي في البيت. وترى تشعر وإن كانت لا تعرف السبب، أن البيت قد أصبح قبرا وأن قميص نومها قد تحول إلى كفن، بعيني رأسها جنازتها وصوان العزاء وفتحة القبر. داخت من اللف على حكماء القبر. لعل أحدا يشفيها من هذا الكابوس اليومي، ولأن كل نصائح الأطباء تراوحت بين سرعة عودة زوجها أو سفرها إليه، وكلتاهما مشورة غير واقعية، ومستحيلة التنفيذ، فقد اكتفت مؤقتًا بتعاطي الأدوية وأن تحول هذه اللحظة الفاصلة بين النهار والليل إلى اتصالات تليفونية ترسم من خلالها شكل السهرة ومكانها والذين سيحضرونها، وما سيجري فيها.

طلبت نانا ــ التي كان اسمها نازك ــ واستبدلته مثلما بدلت الشقة والملابس والسيارة والنادي والكوافير. فقد حطّمت كل ما كان في حياتها القديمة، طلبت نانا، صديقتاها

سوسو، التي لم تكن تعرفها إلا من أيام فقط والتي كان اسمها إلى وقت قريب، مكاسب.

قالت نانا لسوسو، إنها قررت أن تقيم لهم في قصرها، وهي تعرف أن كلمة قصر تقال تجاوزا، لأن الموجود فعلاً لا يزيد على فيلا كحيانة، ستقيم لهم " برتيتة " هكذا عرفت الكلمة أخيرا، ولكن سوسو قالت لها الكلمة الصحيحة هي بارتي. وأن معناها هو اجتماع الخلق مع بعضهم من أجل اللمة والونس والسهر فالوحدة تقتل الإنسان في عز الشباب.

قالت نانا إن هذه البرتيتة. ذلك أن أمامها وقتًا ليس بالقصير حتى تتعود على نطق الكلمة الجديدة ـــ لم تحدث من قبل. بل وسيحدثون عنها كل أيام العمر القادمة.

طلبت نانا، نازك سابقًا، من سوسو، مكاسب من قبل أن تُحضر معها كلبها الواعر، وأكّدت عليها أن حضور الكلب أهم من مجيء كل أفراد الشلة.

حاولت سوسو أن تستفهم منها. رفضت نازك أن تُبوح بسرها. قالت إن المفاجأة لو احترقت لن تصبح مفاجأة أبدًا، قالت لها سوسو، إنها لو أحضرت كلبها، قد يشعر بحالة

من الضيق فهي، أي نانا، لا تربي كلبة في بيتها، وكل ما عندها من الحيوانات الأليفة، مجرد قطة سيامية.

أغلقت نانا التليفون وهي تقول:

ــ هِية دي المفاجأة!

٢ ــ كلُ يعشق قِطة

تسحبوا

جاءوا ُفرادى مثل كل ليلية.

تسلّلوا. كل رجل بدون زوجته، وكل امرأة من غير رجلها.

وعندما أطلت عليهم نازك هانم، وقفوا جميعا، عدت الرءوس، اكتشفت أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال بكثير، هفّ عليها الغم نفسه الذي يكبس على أنفاسها كلما تناقص الرجال، وتساءلت: متى يتساوى العددان؟

جلسوا، متولي الأشقر التاجر، يقولون عنه من وراء ظهره." برميل اللحم ". يعلوه وجه طافح بالشهوة، والرغبة في الامتلاك. لا يهم من تكون المرأة، مطلقة، أرملة، عانسا،

زوجة في حالة خصام مع زوجها. المهم أن تضاف إلى قائمة نسائه.

خليطٌ عجيب من خلق الله. أزواج آباء جدود زوجاتٌ مهجورات، نساء وحيدات لا يربط بينهن سوى صداقة البرنسيسة نازك هانم. ما دام زوجها في بلاد العرب، وعندما يحضر الزوج، ويقولون عنه سرا، المرسال الذي جاء من بلاد العرب. يقضي في المحروسة شهرا.

يقررون الصيام عن اللقاء شهرا، بعد أيام قليلة تنهار المقاومة، فيرتبون اللقاء في شقة صغيرة مؤقتًا، لحين عودة المرسال إلى المكان الذي جاء منه، يقارنون بين فخامة بيت نازك هانم، وتقشف الشقة البديلة فيقولون: إن السبب هو حضور المرسال، تحبك النكتة، يتساءلون: وهل طلب منه أحد الحضور حتى يحضر؟

ــ كلب يجامع قطةٌ، تصوروا.

فجرت نانا قنبلتها الليلية. ووقفت ترصد ردود الأفعال، على هذا الذي لم يحدث من قبل أبدا، ولا في حواديت أمنا الغولة والشاطر حسن وست الحسن والجمال.

طاروا من الفرح، فرقعوا بأصابعهم فـي الهـواء. ضرب كل منه كفًا بكف.

ــ عكروتة نازك هانم.

قالت نازك هانم، إن القطة أخبرتها ساعة العصاري، أنها تطلب الذكر، وعندما عرضت عليها أن تحضر لها قطًا سياميا. رفضت القطة وقالت إنها تطلب كلبا، بالتحديد كلـب سوسو هانم.

اندهش الحاضرون من القطة التي طلبت الذكر، وإن كان الموضوع لم يدخلْ دماغَ متولي الأشقر تساءل في أبدا.

خاطره، هل لم تجد هذه النازك سوى الكلب؟ هل خلت البلاد من الرجال حتى تفكر في الكلب؟ ربما تـدرب الكلـب مـع القطة أولاً، حتى يعرف كيف يشبعها بعد ذلك، زيتهـا فـي دقيقها، ولا تجري وراء قصص الحب الفاشلة، وتشتري كلبا لنفسها.

ازداد الصخب عندما تعجبت إحدى الحاضرات مـن كون القطة طلبت كلبًا بعينه ليس أي كلب والسـلام، ربمـا كانت قد حطت عينيها عليه من فترة. قالت أخرى، إن القطة أشجع منهن جميعا. تعرف جيدا ماذا تريد؟ وتطلبـه دونمـا

خجل. " حسرة علينا " البكماء نطقت، والناطقات أصابهن الخرس، ماذا جرى للدنيا؟ انقلبت الحال.

أحضروا الكلب والقطة، أوقفوا القطة أمامه، ولأن أرضية الفيلا ذات مستويين: واحد عال، والآخر منخفض، مثل بيوت كل الأكابر، فقد وقفت القطة في المستوى المنخفض، والكلب وقف في المستوى المرتفع، وتحول الحاضرون من الرجال والنساء إلى حلقة حولهما من كل جانب، رفعوا ذيل القطة، وبدأوا في الطبطبة عليها، ولكن الكلب الواعر لم يكن معهم، طلبت منهم نازك هانم الابتعاد قليلاً. ربما أصاب الكلب الخجل.

سال جدول من لُعاب الكلب على الموكيت الفاخر، بدا لمعانه واضحا تحدثوا، ولكن الثرثرة والضحكات كانت تخفي قلقهم من نهاية هذه الحفلة سأل الكلب الذين يقفون حوله:

ـ أين أفض بكارتها؟

رد عليه التاجر، الذي يعد أكثر الحاضرين ثراء:

ـ نقبك على شونة.

كان الكلُ حزينًا، وتجولت عيناه في الوجوه الملتفة حوله، وأخرج لسانُه الطويل. حركه في الهواء ببطء، وأدخله في فمه، مط جسمه عن آخره، وتمطع وهز ظهره هزةً عنيفة.

رأى متولي الأشقر استسلام القطة اللذيذ. ولُهاثَ الكلب الأجوف، ففقد كل قدرته على المقاومة. أصابته حالة من الهياج، أصبحت معلقة فوق رأسه في الهواء، لم يعرف كيف يقاومها؟

صرخت فيه مكاسب:

ــ أودي وشي من الناس فين؟ فضحتني واللي كان كان.

القطة وقفت ساكتة ساكتة. كان الحاضرون يقلدون أصوات القط الذكر عندما يطلب أنثاه، تتلفت القطة باحثة عن مصدر الصوت. كان لمعان عينيها قويا. وكلما خفتت الإضاءة، حيث يجري المشهد المثير، أصبح شعاع عينيها أكثر حضورا.

ولعبت الأشباح على الجدران، نظروا إلى تهاويل الظلال على الحيطان وفي الظلام، كانت الفيلا تلمع أكثر من

اللمعان نفسه. حركوا الكلب تجاه القطة. قال متولي الأشقر لنفسه:

ــ ما الذي يمنعه من تذوق حلاوتها؟ رفع أحدهم قدمي الكلب الأماميتين فوق القطة فكادت تُخرَبشُه.

ضحك التاجر:

ــ مسكينة رضيت بالهم. ولكن الهم لم يرض بها.

٣ ــ فعل غير فاضح في قلب القصر الكبير

فوجئت الحاضرات، وفوجئ الحاضرون بالتاجر متولي الأشقر، الذي يقولون عنه في غيابه، إنه حرامي كبير يخلع ملابسه، ويصبح عاريا كما ولدته أمه. كان كرشه ضخما، ولحمه يتدلى من أكثر من مكان، وقدماه رفيعتين، وقد تعجبت الحاضرات والحاضرون: كيف تحمل القدمان هذا الحمل الضخم؟

أصابع وعلى الرغم من أن النساء رفعن أيديهن، حتى لا بين يرين هذا المنظر الفاجر، إلا كل واحدة منهن، حركت يديها التي تُغمي بها عينيها، حتى ترى من النافذة التي الأصابع، الرجل العاري، وتبحث بعينيها عن عضوه.

قال متولي الأشقر وهو يداري نفسه:

ـــ يكفينا شر العين.

هجم على القطة وهو يصيح:

ـــ سيبوني عليها

وقبل أن يصل إليها، هجم عليه الكلب، هبره من مؤخرته، ولم يتركه إلا وبين أسنانه قطعة من الإليتين، بعد أن تناثرت دماؤه على الحاضرين.

صاح واحد مثقفٌ:

ـــ الغيرة أكبر محرك للتاريخ.

قال التاجر:

ـــ كلب مسعور.

علقت امرأة:

ـــ البلد كلها أصابه السعار .

ضحكت نانا، وقالت لمتولي الأشقر:

ـــ بكرة تبقى كلبا ويعملوا لك حفلة زي دي.

أكملت سوسو:

ـــ بس يوميها، أبقى ورينا شطارتك.

بحثوا عن مستشفى الكلب، قيل لهم: إن المستشفى الوحيد في العاصمة، يغلق أبوابه في الساعة الثالثة بعد الظهر، حسب مواعيد العمل الرسمية، ولا يفتح أبوابه سوى في صباح اليوم التالي.

وعندما استدعوا طبيبا خاصا جاء مسرعا، وقال، بعد أن عاين الحالة: إن الحكومة تحتكر مصل الكلب، وذلك من عجائب الزمان. وإنه لن يقترب من المصاب إلا بعد أن يحرر محضرا قي قسم الشرطة الذي يتبعونه جغرافيا بالواقعة وبعد أن يعترف الكلب بما جرى، ويشهد الشهود بذلك، بعد هذا فقط يمكنه أن يحضر المصل الانفتاحي من تحت طقاطيق الأرض. وإن كان سعره نارا.

٤ ــ محضر معاينة

لم تكن هناك مسافة طويلة بين عزبة الصفيح والفيلا، خطوة واحدة وتنقلب الحال، من الفقر والجدعنة، إلى العز الذي هو بهدلة، بلاغان مختلفان والمكان واحد. فقط خطُّ السكة الحديد، الذي يعبره المشاة على أقدامهم، وأصحاب السيارات لهم مزلقان لا توجد عليه إشارة.

من كثرة الذين تزهق أرواحهم، من القطارات البطيئة المتجهة إلى المخزن أو الخارجة منه. سماه سكان عزبة الصفيح مزلقان الموت. أما أصحاب الفيلات فقد قالوا عنه مزلقان التحديد الفاصل بين أولاد الناس، وأولاد الإيه، تلك الكائنات التي لا يوجد مبرر وحيد لمجيئها إلى الحياة.

في الطريق من العشش إلى القصور، حاولت " صبرة عابدين " أن تتكلم مع الضابط. ولكنها حبست الكلمات بداخلها. أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى. نظرت إلى الأطفال العراة، الحفاة، الذين يلعبون وسط الدخان في الحواري السد والأزقة الضيقة.

دخل الضابط إلى الفيلا. صمت كصمت الموتى، سكون مثالي. حذر، والعيون مسمرة تنظر في الفضاء الفراغي، الممر المؤدي إلى الفيلا، تسيجه من الجانبين أشجار رقيقة الطريق من الباب الخارجي إلى الباب الداخلي نفق من الخضرة، أرض معشوشبة، يغطيها عشب معتنى به، وعلى الجانبين ووراء الجانبين أشجار مهذبة على أشكال غريبة.

شجرةٌ تأخذُ شكلَ رجل، وأخرى أصبحت مثل حواء الأولى، في الزمان الأولى، لا يغطي عريها سوى ورقة التوت، وشجرة ثالثة كأنها طائر يحلق في العلالي، البيت مبني بطوب أحمر، يمكن عد الطوب، طوبة طوبة فيه. وبين الطوبة والأخرى خطوط، النصف الأعلى خطوط فضية، والأسفل خطوطه ذهبية، والسقف على شكل جمالون. يتذكر من يراه ببيوت باشاوات الإنجليز، التي تركها بعد الثورة.

قال الضابط لنفسه، إما أن يعيش الإنسان في مثل هذا البيت، وإلا لا معنى للحياة، ولا طعم، أما هي فقال بصوت سمعه واضحا:

ـ إنها حوادث البيوت الأنيقة.

همست:

ـ كل ثروة كبيرة، تخفي وراءها جريمة أكبر.

أشارت إلى الناحية التي قدموا منها وقالت:

ـ وهكذا تاه الوطن بين تطرفين: العبد الصفيح والبيت المبني من العاج والأبنوس والذهب والفضة.

سور خارجي، وسور داخلي، وفي المساحة بين السورين، ثمة سيارات كثيرة، من أحدث الموديلات، وأفخمها. كلها تلمع. سيارات من المرايا.

سيارات جميلة مثل البيت الذي رآه، ومثل نساء البيت اللاتي لم يرهن بعد. وصل الضابط إلى البيت وقت الضحى، مدت له ربة البيت يدا صغيرة، ناعمة ومعطرة، نظرت في وجهه محدقة،

الكلمات الأولى: سعل الضابط وصفى حنجرته، وأخذ هيئة المحقق واستعد للسؤال الأول.

الردود الأولى: ردت عليه وهي تميل برأسها المتوج بكتلة من الشعر البني الغامق إلى الوراء، شعرها ينسدل خلفها، ونهداها يندفعان إلى الأمام في تحد مثير.

غمز الضابط بعينه اليمنى بسعادة وألفة لنازك هانم، وهو يصبح عليها، سارت أمامه، كان في مشيتها نوع من الارتخاء المحبوب والمحسوب. قال في نفسه: متى يسرح جسمه ويستريح في ملابس زوج هذه المراة المركونة في دولاب ملابسها، تفوح منها رائحة العطانة وتسرح فيها العتة

منذ سنوات مضت؟ وكان صوت نازك هانم أحن الأصوات التي استمع إليها في عمره كله.

واقف كان التاجر الثري الشحيم اللحيم ممددا على وجهه يعرف والضمادات متناثرة عليه، والطبيب يعالجه، والكلب بعد أن كتفوه وربطوه في الحديد، أما القطة فلا أحد أين أخذتها نازك هانم خوفًا من رجال البوليس.

كانت نانا قد رفضت من البداية مسألة إبلاغ البوليس، خوفًا من الفضيحة والفضيحة. وقالت وهي في ذروة غضبها قبل أن يصل الضابط إلى البيت. إنها ستكون المرة الأخيرة التي تفتح لهم فيها بيتها. وهم لم يصدقوا تهديدها لأنها سبق أن أوقفت سهراتهم من قبل لفترة قصيرة، وعندما أوشكت أن تصاب بالجنون استأنفت السهرات، وكأن شيئًا لم يكن . ومن يومها وهي لا تستطيع فراقهم ليلةً واحدةً.

نظر الضابطُ " بدر بحلق، إلى المكان، بدا له وكأنه قد وجد من أجل الفرجة عليه فقط، تمحك وهرش في عرض الهيافة. وقال إنه لابد من معاينة المكان كله. فكر أن يطلب منهم أن يمثلوا أمامه ما جرى ليلة الأمس مرة أخرى.

حوله نساء من الترتر. يرتدين ملابس سهرة سوداء، بين أصابعهن سجائر لم يرها من قبل، حولهن كئوس الشراب ومن صدورهن يطل الشبق المثير، وحول شعورهن يتقاطع العطر الفواح، وخلفية الصورة معلق فوقها كلمتان فقط، إنه الفراغ.

طلب أن يلقي نظرة على غرف الفيلا الأخرى حتى يأخذ فكرة كاملة وشاملة عن مسرح الجريمة، غرفة نومها كانت غرفة المرايا. مرايا في كل الجهات الأربع وتحت وفوق. مركبة بطريقة تجعلك عندما ترى نفسك فأنت ترى ألف شخص متناثرين يتحركون في نفس الوقت. شعر الضابط " بدر بحلق " أن متعة الجماع هنا لا تعادلها أي متعة أخرى في هذا العالم.

توقف الضابط في المطبخ. كان الهواء كئيبا وعلى سفرة المطبخ الصغيرة.

شوكة واحدة، وسكينة بمفردها، ملعقة لا ثاني لها.

كل شيء فرداني نظر إليها وسأل:

ـــكل هذا الجمال ووحدانية؟

تسللت النعومة إلى صوتها وهي ترد عليه:

ــبختي.

تمتم:

ـــقِ

م عندما عاد إلى الصالة التي يقفون فيها، اكتشف أنــه

نسى " صبرة عابدين ". كانت تقف في جانـب، وخلـق الله كلهم في جانب آخر. هكذا هي. أي خطأ ارتكبه بإحضـارها معه؟ في أيامه الأولى نصحه ضابطٌ كبير أن يبعد علاقاتـه النسائية عن مسكنه وعمله. الآن ربما يتطور الموقف إلى ما لا تحمد عقباه، قد تفضحه هذه الصبرة التي لم يحصل علـى ما يريده منها، ويبدو أنه لن يحصل منها على أي شيء مهما فعل، ومع هذا هو يخطئ ويحضرها معه في مهمة عمل.

قال التاجر الثري إن كل المطلـوب مـن حضـرة الضابط هو تحرير محضر، مجرد محضر إثبات حالة، ربما يحتاجه من أجل العلاج، لأن الحكومة تحتكر مصل الكلـب، وهم عموما قد اتفقوا على ما سيقولونه لحضرة الضابط.

عرضت سوسو هانم أن تدفع أي كفالة للكلب، فهـي لا يمكن أن تسمح بحبس كلبها لأن ذلك سيؤثر على حالتـه النفسية، خاصة أن الحجز في القسم فيه دائما أناس أقل مـن

مستوى الكلب المعيشي. عرضت على الضابط، أن يأخذها مع كلبها حتى لا تحدث له حالة مرضية. لا تعرف كيف تعالجه منها في الفترة القادمة.

طمأنها الضابط ــ وعيناه على صبرة، يحاول أن يخمن ردود أفعالها ــ قال إن الكلب سيكون في الحفظ والصون لحين عرضه على النيابة. وإن كان هناك أدنى شك، سيدخله مستشفى الشعب لعلاج الحيوان، ويعين له الحراسة اللازمة. ويمكنها في هذه الحالة نقله إلى الدرجة الأولى، وتدفع هي الفارق بين العلاج المجاني والمخصوص.

تدخل الحاضرون لدى متولي الأشقر لكي يتنازل عن بلاغه، أكدوا له أنه سيعالج في مستشفى الكلب دون أن يسأله أحد عن الكلب الذي عضه. والضابط تطوع وقدم الكذبة المطلوبة في مثل هذه الحالات، وهو يتمنى ألا تسمعه الإنسانة التي أحضرها معه. قال إن متولي بيك يمكنه أن يكتب في أوراق المعهد، أن الكلب الذي عضه هو كلب ضالٌ، وأنه فر هارباً، بعد العضة، ولم يتمكن من الإمساك به

بسبب الخوف منه.

نظرت النساء له بإعجاب ووَلـــهٍ ورغبـةٍ، صـفّقت واحدة جميلة، وبالمناسبة كلهن جميلات، بيدين مثـل أيـادي حوريات الجنة وصرخت قائلة بفرح طفولي لا يتناسب مـع أنوثتها المتفجرة.

ـــما يجيبها إلى ظباطها.

ندم الضابط لأنه تسرع بإحضار خميرة العكننة التي لزقت له ولن تتركه ولا بالطبل البلدي. لو أنه تحـرك قبـل حضورها بقليل. كان قد صال وجال هنـا، وخـرج ومعـه مواعيد لكل ليالي الأسبوع القادم، ولأصبح مثل شهريار كل ليلةِ جسد جديد لم يتعرف عليه من قبل. حظوظ، قليل البخت من يحضر صبرة، وصبرة دون سواها. وهو في طريقه إلى جمهورية النساء الجميلات.

٥ ــ محضر صلح

وهكذا تحول محضر إثبات الحالة إلى محضر صلح. بعد أن اتفق الضابط مع صاحبة البيت على أن يعود في المساء، لكي يستكمل المحضر ويحصل على توقيعها عليه.

سأل الضابطُ صديقته، التي أوشكت أن تنفجر من الصمت:

ــ ُقت متاعبنا؟

قبل أن ترد سألها من جديد:

ــ مين فينا اللي بيدور على المتاعب؟

قالت له بحدة:

ــ إنها دعارة وليست متاعب.

أكملت أن هناك من يحـ ُلُ مشاكل الناس، وهناك من يخُلها لهم ويتفرج عليهم وهم مرتبكون غارقون في بحيرات الهموم الصغيرة. وفرقع بأصابعه مقلدا إعلانات أيامه:

ــ هناك فرق.

ردت عليه:

ــ وأنا مصممة عليه.

قالت في نفسها، إنه يذاكر جيدا الكلام الطافي فوق أيامه ولياليه، سألته فجأة:

ـــ هيه الناس عندكم بفلوسها واللا بنفوسها؟

شوح بيده:

ـــبالك رايق وعقلك بيودي ويجيب.

صرخت فيه:

ـــوعقلك أنت بيحسب كام؟

هذه المرة أدرك أنه لا فائدة من الرد عليها. أما هي فقد حلقّت بعيدا مع أفكارها. همست في عقل بالها: لا أعرف كيف اقتربت منه إلى هذا الحد؟ إنه ضابط. ولابد أن فمه قريب من أُذن حكومتنا الرشيدة. ويمكنه الكلام معها في أي وقت يشاء، وكلماته يصدقونها على الفور. لا يعطون أنفسهم فرصة تقليب ما يقوله في ضمائرهم التي يبدو أنها أخذت أجازة مفتوحة ولكنها أجازة براتب وبدلات وإضافي والذي منه. نظرت إلى الضابط، ألا يدرك هؤلاء الناس الآفاق القاسية التي تنتظرهم؟ ألم يحدقوا من قبل بالهاوية التي تحت أقدامهم؟! ألم يرفعوا أبصارهم ليروا فصول الغضب الأربعة التي تنتظر دورها في الوصول إليهم؟

نظرت في داخلها، حدقت في بئرها الخاص وتساءلت:

ــ كيف أُصدق هذا الذي يجري أمامي؟

وبدأ كل واحد منهما يتحاشى الآخر.

النظرات الأخيرة: نظر

" بدر بحلق " إلى " صبرة عابدين " توقف نظراته

عند هذه الحيرة المتراقصة في عينيها، كرهها لحد الموت، بسبب براءتها، ولأنها لم تنحن بعد. حاول أن ينسل بعيدا عن تلك الرغبة المستحيلة التي تشده إليها.

نظرت " صبرة عابدين " إلى الضابط. كم يبدو بعيدا عما يغلي في فؤادها، ويفور ويضطرب في أعماقها، كانت مكفهرة القلب مكروبة الأنفاس. وصل الوجع حتى عظام صدرها.

ا تعاشات الروح ـــ م هضر أول

الاعتماد على النّفس خير معلن عن معانيها، هذا ما تعلّمته في طفولتي البعيدة. ويبدو أنه لا مفر من تنفيذ ذلك الآن. لن أعتمد على حضرة الضابط أو غيره. لابد أن تكون لي تجربتي الخاصة مع موضوعي. الأمر لا يحتاج إلى معجزات، والمعجزة ولّى زمانها. المسألة في منتهى البساطة. عليّ أن أبحثَ بنفسي، وأن أجري وراء ما أريده بمفردي. حتى لو كان ما أقوم به إكمالاً لما بدأ الضابط، فليكن. المهم أنه لا عودة له بعد الآن.

فهالني ليلة الأمس، كتبت في أوراقي كلاما كثيرا، صباح اليوم طالعته. من باب وصل ما مضى بما هو آتٍ.

أن أكتشف أن لديّ القدرة على كتابة هذا الكلام الكبير:

" وطن يخضع بأكمله لعدد قليل من أصحاب الكروش التي لا تعرف الامتلاء. كروش في سعة المحيطات وارتفاع السماء عن الأرض، ومتولي الأشقر واحد من الذين لا يعشقون سوى كرُوشهم التي في استدارة الكرة الأرضية نفسها.

الكلام السابق قرأته بصعوبة، لأن بعض أحرفه تبدو بصعوبة من تحت شطب. كتبت من جديد: " كيف يتصالح الجوع والتخمة في حالة من السلام المستحيل، ومتى؟ "

مرة أخرى يطل الشطب برأسه. والكتابة أيضا من جديد:

" إنهم يحاولون رشوة الكُلّ حتى الله في سمائه العالية. لكي يغمض عينيه اللتين لا تغفلان ولا تنامان عما يفعلون بهذه البلاد ".

ثم مزقت الأوراق كلها في النهاية.

كيف أقاوم من الآن اهتزازات القلب ورجفة الضمير؟ تاه وجهي وراء غيوم الأفكار التي تصفُ بي. وتلك هي المسألة. ثمة حالة من القلق والإعياء. تلُفُّ الوطن. في عيني المضطربتين ضوء يأتي من نفقَي الخاص. نفقي الداخلي. كنت أريد العودة إلى شرنقتي الخاصة التي غزلتها بصبر وأناة وتمهل ونسجتها من العتمة والسكون.

سألت نفسي: من تراه لا يشعر بالتيار الخفي الذي يؤدي إلى اضطراب الوطن؟ كل ما شاهدته اليوم، سواء في عزبة الصفيح أو في قصر المرايا، سيظل عصيا على

التشكيل في صيغة مضبوطة من الكلمات والصور والأصوات.

بدا لها الضابط ينظر إلى الناس بعينين باردتين. وجهه خال من أي تعبير. عاجز عن الإعلان عن أي انفعال، حتى عندما يحاول جاهدا أن يتغاضب أو يتضاحك أو يتحازن.

كانت تحب أن تقرأ وجوه الناس وتحاول فلك طلاسمها، وهذا الهوس هو الذي قادها إلى ضابط البوليس. رفضت أصواتها الداخلية التي حاولت إبعادها عنه. تصورت أنه منجم بكر، وهي دائما تحدث لها حالة من النشوة عند إكارات الأشياء الأولى، عندما تذهب إلى أماكن جديدة. وتدوس قدماها في أرض بكر. تبدأ على الفور في القراءة والتحديق في أعماق الناس.

كانت مثقلة بمعرفة. تعرف أكثر مما ينبغي، عرفت الكثير من طعوم الأشياء في حياتها. وإن كانت لم تتذوق حتى الآن ما كانت تسمع من العديد من المثقفين الحديث عنه. تقصد طعم الهزيمة الأولى. التي تبقى مرارتها معنا

حتى آخر أيام العمر عندما تدوس الأقدام الغليظة في حديقة القلب

البيتُ في سِـَّـة ِ الَّذ صد

١ ــفي البدء كانت: بوم

ألم يتعبا بعد؟ يسأل نفسه، فلا يردد الببغاء السؤال وراءه. حتى الببغاء لا يعيد قول إلا ما يحلو له فقط. القصة المعادة ما زالت تحمل لهما كل بذور الإغراء، دود الأرض لا يملك سوى أن يحن لبعضه، وطيور العلالي، يبحث كل وليف عن وليفة. لا يعرف الشبّع طريقه إليهما أبدا، أما هو فذرات الملل كرمال الصحاري، التي تهاجم العين، من كل النواحي، هي الحقيقة المؤكدة.

حوصر مع وحدته أياما ولياليٍ لا يعرف عددها، فقد الإحساس بالفارق بين ظلال الليل وأنوار النهار. تحاول عيناه أن تتسكعا بين الألوان. لكن الألوان كانت تولي هاربة. ولا يبقى بعد فرارها من الدائرة التي تراها العين سوى الأصفر الباهت، المتموج مع نظرات العين إلى ما لا نهاية، أينما ولى وجهه ينسدل أمامه سراب في صفرة الموت وشُحوب النهايات. هارب من الرمال إلى الرمال، فار من الصحاري إلى الصحاري، جفاف الحصار، من الجوع إلى

فراغ البطن. من تشقق الشفاه عطشًا إلى الجوف الحامي مثل بطن الفرن من زغللة الأعين إلى تداخل المرئيات.

يبحث عن تقاسيم الألوان حوله. عن تباريح لون دم الغزال. وهدوء اللبني، وتحديد الأسمر والأمل الذي يشيعه الأخضر. ولكن أمامه وخلفه شرقه وغربه. شماله وجنوبه. فوقه وتحته. هذا الأصفر الكئيب، حتى السماء تبدو له أحيانًا مرآة لا تعكس سوى اللانهائي من التماوجات الصفراء.

يبحث عن قدمه التي لم تعد قدمه ولا يجدها. يحاول الهروب عبثًا من اللحظة ولكنها تطارده. تحاول اصطياده، يجاهد لكي يخلعها من فوق جدران الذاكرة، والمشكلة أن الذاكرة نفسها لم يبق فيها سوى هذه اللحظات ذات الرائحة الصفراء. وعندما ضاعت قدمه التي لم تعد قدمه كان الأصفر آخر ما رأته العين.

رآهما معًا. ذات يوم خريفي. حيث تصحو الرغبات قبل الناس. وتستدير أجساد النساء الجميلة في أذهانهم التي لا يعشش فيها سوى الحرمان والإحباط. ويأخذ الرغيف الساخن شكله في مخيلاتهم الجائعة قبل أن يخرجوا من دنيا النوم الوهمية. لهما أربعة أقدام قدما رجل وقدماه امرأة. بالعدل

والقسطاس، أما هو فقدم واحدة. عدد مفرد، على الرغم من أن كل أقدام البشر تقبل القسمة على اثنين. على الأقل عنده غير ما عند الناس أجمعين.

دقات الساعة، يعدها ببطء. تبدأ قويةً في سمعه، ثم يأتي التلاشي والذوبان مرة أخرى، في الأصوات الصباحية المعادة والمكررة. وأخرى من هسيس السكون، في هذا الوقت من النهار. كان يذهب إلى عمله. عندما كان له عملٌ. وقبل أن يجري له ما جرى، الآن يركن قدمه الحديدية على الجدار، وينظر من النافذة، يتسلى برؤية الغبار السابح تحت ذرات ضوء الشمس. يتابع الذرات المعلقة التي تمنحها خيوط شمس الخريف الحياة يظل يتابعها حتى تخرج من تحت الأشعة الذهبية وتبتلعها رمادية النهار.

يحافظ على هذه العادة، لأنه لا يوجد لديه أي شيء آخر يفعله في هذا الوقت. يشعر بحالة من الضيق الشديد بسبب السكن في دور أرضي. مسكون بالبرد في الشتاء، ويصبح القيظ أعمدة وجدرانا في الصيف. أما في الاعتداليين فلا يجد سوى الرطوبة.

لا مفر، أخذ الأطباء العسكريون كل ما أرادوا أخـْـذَهَ منه. لحم وعظام ودماء، قدم بكاملها، حملوها بعيـدا، ولـم يعيدوها إليه. لا يعرف أين دفنت؟ لم يدلّوه علـى مكانهـا. وأخطأ هو لأنه لم يسأل عنها. ثم تاهت به الأيام بعيدا عنهم.

حمدا الله أنه كان في الغيبوبة الطويلة. ولـم يعـــرفْ كيف أزالوا شعر الرجولة الكثيف الذي كان يغطـي القـدم. وكان يحلو له أن يسرح بأصابعه وسطه قبل البتـر. كـان الشعر قد تحول إلى خصلٍ حمراء قانية. بتأثير الدماء. كـان يحزنه أن القدم الحديدية تخلو من الشعر. ملسـاء وناعمـة وباردة. ظل التفكير في مكانِ قدمـه يعـاوده فـي بعـض الصباحات.

ما إن يمسك بالقدم الحديدية حتى يتـذكرها، يقـولُ لنفسه:

إنه في الغد سيذهب إلى المستشفى العسـكري، لكـي يعرف أين دفنوا قدمه. وكان يؤجل المشوار يوما بعد يـوم. إلى أن كان نهار. قرر فيه الذهاب. لبس ونزل. شعر بنشوة طارئةوحماس لا يعرف مصدره. اكتشـف أن المستشـفى هدم. وأن مبنى كبيرا أقيم مكانها. يحرسه أفـراد البيرهـات الحمراء. يقفون أمام كشك يدور حول حزام أحمـر. تحتـه

حزام   أبيض، حملته الألوان إلى الزمان الذي مضى. كتب عليه: الشرطة العسكرية.

أتاه فرح دافقٌ. قدمه في هذا المبنى. لا بد أنه متحف كبير مخصص يحفظ أجزاء من رفاق القتال. معرض بطولات بشرية تُحصنّه الحراسة المشددة من كل جانب. فالأعادي يملأون البر. سأل واحدا من الجنود الشبان عن المتحف، فطلب منه الجندي الابتعاد عن المكان لأنه تجري هنا مفاوضات حل عليه تعب مفاجئ هده. أحس أنه لا يستطيع الوقوف، طلب شربة ماء. وعندما جاء الماء من داخل المبنى رفض أن يشربه. فكر أن يستريح ولكنه عدل عن رغبته. أينما سرت لا تجد سوى الذين يتفاوضون. إنه زمن المفاوضات الكلّ يفاوض الكل. المأساة أنهم يتفاوضون مع الأعادي. مع أن الأولى والأهم أن يقدروا على التفاوض مع أنفسهم أولاً.

في المستشفى الذي كان هنا. أعطوه بعد عودة وعيه إليه قدما حديدية لم يكره في حياته شيئًا مثل كراهيته لها. على باب المستشفى الذي كان، ودعوه بعد أن أصبح شخصا آخر. قال في سره: اختلاس طبيعي في زمن السرقات. دخل

على قدميه. لا. لا يجب الكذب في هذه الأمور. دخل على نقالة. ولكن بقدمين. واحدة يشعر بها ويستطيع أن يحركها. والثانية تتطوح دون أن يدري. اختلط الدم والعظام واللحم فيها.

خرج بعد التحسينات. قالوا له إنهم أنقذوا ما يمكن إنقاذه. أكدوا عليه بضرورة السكنى في دور أرضي. لا مفر من الاقتراب من الأرض. ضاع إلى الأبد زمن التحليق والأحلام ومعانقة السماء في وقت الأصيل الصافي. لن يحدق في الناس من العلالي، ولا يرى سوى الرءوس، بعد أن تصبح مجرد دوائر صغيرة، لن يشغل نفسه بالمقارنات بين مساحات الصلع وغزارة الشعر ومفارق الشعر. لن يفكر في أنواع الدهانات التي استخدمت في دهان الشعور. لأن الروائح لن تصله. وقد يشمشم كما يشاء، فأنفه لم يستبدل بعد ولكن لا روائح.

تدور عيناه في كل الاتجاهات. فالعينان سليمتان لم تقترب منهما قذيفة من قذائف العدا. وإن كان سينظر في اتجاه واحد. إلى الأمام.

٢ ــ أينما تكونوا تدرككم: بوم

خرجا من باب البيت المقابل، فتـى وفتـاة. سـكان جدد!! تجري الحياة من حوله دون أن يعرف أي شيء عـن مجرياتها. من أين جاءا وكيـف تزوجـا دون أن يـدري؟ عصفوران مغرّدان، أصابع يديهما في حالة عنـاق. علـى صدرها يمامتان تحلقان أمامها. تدوس على الأرض بمقدمـة مشطي قدميها فقط.

تتشعلق بشاب عروقه نافرة، عضلات جسمه تقـول إنه خارج لتوه من حلقة مصارعة.

يمشيان معا ببطء، كإنهما في فسحة، كلمـات وراء كلمات، تقول ويستمع تتعب من الحبور ومعانقـة الكلمـات، تنصت والشاب يتكلم. تتوقف فجأة. فيوشك أن تنفرط حبـات عقدهما، فيقف الشاب أيضا. تحولا إلى كيان واحـد بـأربع أقدام ورأسين، يبدو له الشاب وكأنه يبحـث بـين الكلمـات والتماسك والمشي عن استراحة، يقول لنفسـه: لا يسـتحق الاستراحة سوى المحارب القديم. هو الذي هده التعب فعلاً. قدم أجزاء من جسده ومساحات من روحـه. يـرد عليهـا

وتشر بعيناها كلماته. فتاة ناعمة. بكر. كأن خراط البنات قد خرطها ليلة الأمس فقط. ينسى أمام جمال تقاطيعها وسمسمة وجهها حتى بكاء لحظات الانسحاب.

مضيا بهدوء، كأنهما يعومان في هواء الصباح الطري، ولامستهما نظراته حتى اختفيا. ومع هذا ظل معهما طول النهار، ما استطاع الهروب من طيفيهما أبدا. ما داما قد خرجا صباحا فلابد من العودة ظهرا، هكذا يفعل كل الذين يذهبون إلى هذا الشيء الذي يسمونه العمل.

جاء الظهر، أصبحت الشمس عمودية. واختفت ظلالُ البيوت وحاصره صوت الآذان من الميكروفونات التي لا يعرف كيف يهرب من حصارها، ولم يعودا. شعر بقسوة الوحدة لأول مرة، مع إنه وحيد منذ أن بقى في البيت. وأصبحت كلمة سابق هي الوليف الوحيد لصفة الضابط، التي كان يفخر بها لـ حدالفشخرة الكدابة.

بحث في ذهنه عمن يسأله عنهما. لا أحد يحضر إلى الشقة سوى الغسالة وهي تأتي في مواعيد محددة، لا يغرها سوى القوي الشديد. باق من الزمن خمسة أيام وخمس ليال على موعدها. كانت عنده أمس الأول.

وحتى بعد مرور الخمسة أيام بلياليها من أدراه أنها تعرف؟ وإن كانت تعرف كي يضمن أنها ستحكي وستقول؟ وإن تكلّمت هل ستكون صادقة؟

اليوم□ التالي: انتظرهما. دق قلبه بعنف لأول مرة منذ خروجه من المستشفى، شعر بدفء الدماء في عروقه. في الوقت المحدد خرجا من البيت الذي كان بالقرب من أعرض الشوارع كلها. طريق وليس شارع□ا أنشئ خصيص□ا من أجل المواكب والاستعراضات.. يلف يمناه حول خصرها النحيل وتنام يسراها على كتفه. تمشي كما لو كانت معلقة به. توشك أن تطير في الهواء. تمشي بجواره وكأنها نائمة. وجهها يبدو وكأنه قد خرج الآن فقط من لوحة زيتية جميلة رسمها فنان عاشق تقترب بفمها من أذنه. توشوشه. ثم تعضه في شحمة الأذن. وتكركر الضحكات. ويتقافز الحبور على وجهها.

" أف " زفر بضيق " يا فتاح يا عليم " ألا يكفيهما البيت المقفول عليهما وحدهما طول الليل؟ نحن في الخريف الآن. يتساوى الليل مع النهار ويطول وقت الوصال. من المفروض أن يكونا متعبين في هذه اللحظة. كان يستمع في الزمان الأخضر الذي مضى ولن يعود. إلى الضباط يتحدثون

وقت الضحى، وهم يجلسون في المعسكرات، يستحمون في ضوء الشمس، ويستمتعون بالفراغ والكسل اللذيذين. يتحدثون وهم يتحسسون كروشهم، عن تعب كل منهم من الهنك والرنك، يقول كل واحد بطريقة أو بأخرى، إنه يعاني من حالة نفور من حريمه فور انتهاء الأمر. عندما يعودان إلى النوم بعد المناهدة والتعب والفرهدة. يعطي كل واحد ظهره لحريمه. ويتمنى لو كان هناك مكان آخر بعيد. يمكن أن ينام فيه. يثرثرون أمامه بحرية، فهو لم يدخل دنيا بعد ولا خجل من البحبحة، فمن يعرف زوجة الآخر؟ الحريم لهن عالمهن الآخر.

أما هما، يحلقان مع الضحكات. يقول لنفسه: يضحك عليها،وتنصب عليه. قد يمال خياله وجه امرأة أخرى، وربما تتركه عند آخر الطريق لتسلم نفسها لرجل سواه، يستعرضان حبهما في الشارع. لو كان ما بينهما حبا حقيقيا، لأخفياه عن أعين الآخرين، يتوقف في مواجهة نفسه " قصر ذيل يا أزعر " أصبح شغله الشاغل. يتابعهما كل يوم. يحاول أن يخترق الجدران ليرى ما يحدث، في شقتهما المقابلة لشقته لا يفصله عنها سوى الطريق الذي يكره اتساعه المهول،

اتساع بالعرض. لديه منظار مكبر ومقرب من أيـام خدمـة الميدان. يحتفظ به كتذكار عزيز على قلبه. مـع قليـل مـن الرمال، وجزء من دانة ِمفع.

أخرج المنظار من مكانه. نفض عنه التـراب وبـدأ استخدامه. إنها المرة الأولى التي ينظر فيه فلا يرى الميدان. آخر ما رآه من خلاله كان الأعادي. نادر□ا ما يظهران فـي الشرفة المغلقة دائم□ا، يغطيها الترا □بلمتـراكم وفـي أحـد أركانها يعشش العنكبوت. فتاة من بنات هذه الأيام. النظافـة ليست من اهتماماتها تستعرض مفاتنها في الشوارع، تعرض خبايا جمالها على كلّ الرجال، ولا يبقى لزوجها فـي عـشّ الزوجية سوى إهمالها.

َتعب□ من الوقوف. وأرهق عينيه التحـديِ ُقأعطـى نفسه راحة لبعض الوقت، وعندما عاود نوبتجيـة المراقبـة رأى غسيلاً منشورا في الشرفة ارتعش كيانه من الأفق إلـى الأفق. لم ير سوى ملابسها الداخلية. ملأت الفضـاء أمـام عينيه. شعر أنه يتحسسها بيديه ويشمها بأنفه ويتملاها عـن قُرب. ملمس ناعم. رائحة امرأة، اكتشف خـلال التحـديق

البطيء من وراء المنظار أن ملابسها المنشورة أكثر من ملابسه. بنت أنانية تعطي نفسها أولوية. حتى في الغسيل.

هكذا هن النساء، لا يجدن سوى الأخذ، ويتهربن من العطاء، تقول لك دائما هات وهات، من لحظات التعارف الأولى وحتى الفراق أو الممات. وإن طلبت منها ــ حتى ولو نظرة ــ تمنّعت وساومت وقدمت كشوفًا بطلباتها.

حمدا الله أنه قضى زهرة شبابه في المعسكرات النائية. لا نسوان ولا يحزنون نجاه الله من مخالبهن الناعمة. هل يستمر ويقول إنه ليس بنادم؟ يكذب على من عندما يحاول أن يقول ذلك؟ كيف يقول هذه الكلمات. بعد أن كلبشت البنت في قلبه؟ واحتلت خياله. لو أنه كان يتعامل مع مكوجي وبائع حليب وزبال لامتدت خيوط الحكاوي، وعرف كل ما يريد معرفته.

يحاول أن يرسم خريطة لشقتهما من بعيد، ما أكثر الخرائط التي رسمها لمواقع الأعداء. وماذا كانت النتيجة؟

عاد الأعداء إلى أرض الوطن. تسللوا إلى حرمته المقدسة، بعد ورقة وقعها معهم المجنون. حارب مرتزقتهم. تعرض لنيران، مدافعهم. واخترقت طائراتهم حاجز الصوت في

الفضاء فوق رأسه. تركت نيران بنادقهم أثرها على جسده. وها هم يحاصرون وحدته. يقتحمون حتى غرفة نومه. تطل وشوشهم الكالحة على سريره المهجور من شاشة التليفزيون، تنسال العبرية من الراديو. وتتدلق وتسح□ من أركان شقته كلها.

خانه ربيـ □ـبحكمت فهمي، صاحب مغامرات العوامة و □مـ ◌ْ◌ٍلحـ أجهزة الإرسال والاستقبال لجواسيس الألمان، بطل

الحرب ابتسم لحرس شرف العدا في مطار بن جوريون في تل أبيب. من غرفة العمليات إلى مائدة المفاوضات يا قلبي لا تحزن. لم يكن يعرف أنه سيعود من الميدان إلى المستشفى إلى مركز التأهيل، ويخرج منه ليجد أن نار الحرب أصبحت نارا في الأسعار. وأن خيام المقاتلين أصبحت تباع في المزادات. بعد أن تحولت ــ في منتصف الطريق ــ إلى خيام للمفاوضات. بطل الحرب أصبح في غمضة عين بطلاً للسلام، أعداء الأمس أصبحوا حلفاء اليوم. تحولوا بقدرة قادر إلى أصدقاء ماذا جرى؟ إلى أين يقودنا هذا الجنون؟ لا أحد يعرف، ولا أحد يريد أن يعرف.

٣ ــ بوم الكبرى

يمشي الخريف في ردهات المعسكر، تدوس قدماه على سجادة من ورق الشجر الأصفر. يسمع صوت الأوراق، وهي تتكسر تحت قدميه، ينظر وراءه لكي يرى آثار قدميه، ويشاهد عودة الورق إلى ما كان عليه. يحاول أن يتتبع آثار خطواته. ولكن تتوه منه التفاصيل الصغيرة.

في موعدها جاءت الغسالة، أثار حضورها خياله المحموم، دهشت من بشاشة ترحيبه بها، وابتسامته الطارئة التي لم يكن لها وجود من قبل، تناثر رذاذ التساؤلات من فمه. كان متعبًا من الانفعال، ولكن ردها جاء مخيبا لآماله: " الكدب خيبة " من اليوم وحتى موعد الجمعة القادمة ستطّقَس في الأمر. وتدعبس في الحكاية. وتعرف له الأصل والفصل. من طقطق لسلامو عليكو. خبط جبهته بيمناه، إنه لا يسألها عن أخبارهما ولكن من هما. قالت إنهما منذ أن سكنا في المرح في حالهما. يدخلان البيت كأنه زنزانة في سجن، لا يخرجان منه إلا في صباح اليوم التالي، لا يحملان معهما عند العودة إلى البيت خبزا أو خضارا أو فاكهة.

يعودان وقت الظهر، عرقهما مرقهما، فرك يديه بعنف " مفهوم " يأكل منها وتأكل منه، سأل الغسالة عن وصف شقتهما. قالت إنها لم تدخلها من قبل. قال في نفسه. ربما تصورت أنه يخطط لسرقة الشقة. فلتتصور ما يحلو لها. إلى متى يهتم بما قد يقوله عنه الآخرون؟ عرق وعمل. وشغلته صورته التي ترسم عنه في مخايل الآخرين، وها هو مصيره قبل الأخير شقة مثل الخندق، يدرك هذا جيدا عندما ينظر إلى عمارات هذا الزمان العالية. كلما هبطت قامته. ارتفعت المباني وفوقها جميعا يرفرف علم الأعادي. الخازوق الذي يشعر أنه يعد لكي يصلبوه عليه في النهاية. نهاية النهايات.

الخندق محطته الميدانية الأخيرة. والخندق شقة الأمر الواقع، خندق بعد أن ولى زمن الخنادق، ولن يعود ــ على الأقل ــ في جيله، جسرته تعود إلى أنه ليس له أبناء حتى يشملوا من بعد رائحة عرق الخنادق. وروائح بارود البنادق ربما يعيش تلك الأيام أبناء الآخرين، وها هم يتسابقون في إنجاب أكبر عددٍ من هؤلاء الأبناء.

ها هو العريس، سبع الليل. والعروس فاتنة تلك الأيام، يدخلان هذا السباق، سأل الغسالة إن كانت قد دخلت أي شقة فوق أو تحت شقتهما في العمارة نفسها. ما زال ذكاء القائد القديم متوهجا تحت رماد الملل والتكرار.

قالت إن العمارات والشقق في الحي كله واحدة. بناها الجيش للضباط. كيف فاته هذا؟ ولكن الولد ليس ضابطًا. قد تكون باعها ضابط من الباطن. يتاجرون حتى في الهواء. ثلاث غرف ودورة مياه ومطبخ وشرفة أمامية وأخرى خلفية.

سألها عن أي الغرف يستخدمانها للنوم؟ وأيها صالون للضيوف؟ وأيها المائدة؟ حلفت له برأس سيدنا الحسين والست الطاهرة أنها لا تعرف. قرر أن يتابع الأضواء الليلية في شقتهما، ذكره ذلك بعمليات الاستطلاع التي كان يرصد بها معسكرات الأعداء، لم يكن يرى سوى الأضواء المنبعثة من معسكراتهم، يعد النجوم ويبحث عن أي ضوء فيتحرك في الأفق، لكي يخطط لجنوده، يحسب الوقت.

منذ آخر ضوء في النهار ونزول أول قطرات الظلام. ولحظة أول ضوء في الشقة. إنه النور الأبيض الصافي مثل

الشهد. الصالون مضاء. وهذا معناه وجود ضيوف وسهر ودردشة وحكايات. النور الأصفر.

يتناولان طعامهما في غرفة المعيشة. التليفزيون يعمل، يمران على كل القنوات، يفتح تليفزيونه لكي يشاهد ما يشاهدانه في الوقت نفسه، يحتار أي القنوات تقع تحتْ بصريهما، ربما يستمعان إلى الراديو، تتعب أصابعه من العبث بالمحطات. يشاهد التليفزيون بعينه ويستمع إلى الراديو بأذنيه. في اللحظة نفسها، صورة من أمامه. وكلمة على طبلة أذنه اليمنى. لعبة مسلية. يستمع إلى أجزاء من أغان يرى نتفًا من نشرة الأخبار. تصله جمل من تحليلات سياسية.

" أُفّ " يغلقهما، التليفزيون والراديو معا. لابد أنها تزغّطه، تمسك البيضة المسلوقة تقربها من فمه، يتمانع تبلّعهاله. يتصنع النطع أن البيضة وقفت في زوره، حتى تكور يسراها وتضربه على ظهره. ما إن تلامس يسراها لحم ظهره، حتى تتحول الضربة إلى تحسيس عليه، ثم تأتي التنهدات، وتتعطل لغة الكلام، يتركان منضدة الطعام إلى السرير مباشرة.

يخـرج يتخيل أضواء النهدين في لياليهما الجميلة، وإن كان هذا الجمال يدخله إلى جحيم لا يعرف كيف ولا متى منه؟ يضاء النور الأحمر القاني. آه. ضوء غرفة النوم. هذا الضوء كان يعني في أيامه الماضية علامة الخطر. يعنـي: قف. لكن إضاءته في الشقة المقابلة تقول للتو: استعد.

سأل الغسالة، من يغسل لهما؟ أردف تساؤله بسـؤال أكثر تحديدا: هل تغسل لهما؟ ردت عليه: " كان زمان وجبر " الغسالات الـ لحج هجمت على البر. إن طلبا منها أي عمل، سيكون الكنس والتنظيف، وهذا عمل لا تقدر عليـه بعـد أن هدتها الأيام وضعضعتها الليالي، وحتى إن عملت عنـدهما، لن يدفعا لها سوى الملاليم وموظف وموظفة. ماذا عنـدهما غير راتب كل منهما. أبناء أيام القحط وزمن الجفاف.

طلب منها أن تشمشم أخبارهما من بعيد. هل يتصور أنها الكلب هول الذي يعمل مع البوليس؟ لو كان للعمارة التي يسكن العاشقان فيها بواب، لكان الأمر أسهل. الرجال أقْـدر من النساء في هذه الأمور.

٤ ــ بوم شتوية

الدفء في المعسكرات يبدو مثل المعجزة. سد ثقوف الخيام، يمكن الإنسان من قضاء جزء من الليل الطويل، دون أن يتجمد من البرد.

التعليمات تقضي بعدم إشعال أي نيران في المعسكرات، البدلة الشتوية تمثل قمة زهوه العسكري. قميص ورابطة عنق وشدة، بدلة تلف الجسم وتعطيه ملامحه.

يهفهف شعرها في هواء الشتاء القاسي السريع. يرى في الهواء الطائر صورة أعلام الوطن التي كانت خفاقة، ويتوه ــ في ذلك الزمان العذب الذي أصبح بعيدا بين بيارق الفرق واللواءات.

راح الخريف الناعم وخرج من وسنه الذي لا ينتهي، وجاء الشتاء حيث يتدلى من نوم إلى نوم، لا يستيقظ إلا من تعب الرقاد، ليعود إلى تعب محاولة استئناف النوم. يغير رقدته ويحاول النوم من جديد.

رآهما، تاهت تضاريس جسدها الغض تحت أكوام الملابس، وإن كان صدرها لا يزال قادرًا على رفع الملابس بكل قوته. يبدو كهدف تعليم فوق تبة ضرب نار.

آه من الزمان الذي كان يحدد فيه الهدف قبل الضرب. أما فخذاها وما بينهما فإنهما يذكران بهدف ضرب النار الذي كان يقود الجنود إليه في التدريب العملي على الرماية. وبطل الحرب غدا بطلاً للسلام. وسبحان مغير الأحوال ودوام الحال من المحال.

يضرب كفاً بكف. يشاهد البخار الخارج من فمها، يرد عليه بخار أبيض خارج من فمه، مثل البخار الخارج من بزبوز براد الشاي الذي يغلي ومن الكنكة عندما يسلق البيض فيها كل صباح. حيث إفطاره المكرر والمعاد والذي لا يتغير. يرى البخار من بعيد. ويحاول معرفة الكلمات التي تقال. لا عمل لهما سوى الاحتكاك، على وجهها شريط من شمس عليلة باهتة، لابد أن البخار الخارج من فمها يحمل معه رائحة بقايا الطعام حول أسنانها، بعد قليل يدير كل واحد منهما وجهه بعيدا عن الآخر، ويمد يده، يكبس بهما على أنفه حتى لا يشم الرائحة المتداخلة مع أحرف الكلمات.

النساء هن دفء أسرة الشتاء، وهن فراشه، هكذا يقول. غير أن القول لا يكفي، في السرير لابد أن يتصرف كما لو كان معجونًا بماء العفاريت، جسد المرأة هو اللحاف والبطانية، وإن كانت لابد أن تستنزفه من كثرة نومها معه، تمتص ماء الحياة من نخاعه وهو سيطبع على صفحة خياله تضاريس وملامح جسدها.

ضارة لن يأتي الشتاء القادم وهما معا، ستتركه بعد أن يكون قد تحول على كوم من العظام. أما هو، رب نافعة. لا تنظر إليه امرأة قط منذ أن بدأ يزك في سيره، ويصبح لخطواته صوت واضح، ينتظر اللحظة التي يستقر فيها التعب في نخاعهما معًا. جيل خرع. يفرط في الأكل والنوم والثرثرة والجماع. عمره فركة كعب قصيرة الأمد.

يهاجر من دمه إلى دمه. قميص الدم يغطي جراحه، يخلعه، يلفه حول نخلة الله التي تركها في الوادي البعيد دون حماية. أصبحت هدفًا، يتدرب عليه جنود العدا، يتعلمون فيه التصويب، وهو في الليالي الطويلة ليس محتاجا لهدف لكي يصوب عليه. قلمه يعرف الطريق إلى دواية الحبر التي

يغمسه فيها، كما يعرف إصبعه الزناد. والزناد يدرك مكان الطلقة.

هل يمكن وضع قدر على الماء ثم لا يغلي؟ إن السؤال هو: هل يمكن وضع فأر فوق فأرة دون أن يصبحا ثلاثة في غمضة عين؟ فما بالك بهذه الفاتنة مع هذا البغل طوال الليل؟ في هذه الحالة، لابد مما ليس منه بد. تصبح الشقة جحيمه الخاص، تمتلئ بالرعشات والقبلات والنهنهات، أما هو فلا يملك سوى الحلم بشواطئ البحار البعيدة.

تجود الأرض الربيعية بمكنون سرها يخرج رحمها ما فيه بعد أن يشرب من مياه الأمطار، يجلس في انتظارهما، وهو يسمع زقزقة العصافير ويرى اخضرار الأشجار. رآها تستند عليه. ألم يملأ بعد وصال الشوارع وحب السكك؟

عجيب هذا الولد، وغريبة هذه البنت، حياتهما معا نهر من التواصل والعناق والحب. اقترب من شرفته فاكتشف أنها تجر قدميها. هل هي مريضة؟ ليس من المعقول أن تتحمل هذا العجل فوقها كل ليلة ولا يعرف المرض طريقه

إليها. لولا قدرتها على التحمل لانفجرت من زمان. ولكنها نخت وبركت وظهرت عليها العلل.

أحضر نظارة الميدان بسرعة لعله يدقق في الأمر ويرى الهدف عن قرب ويكتشف العلة ويتوصل إلى الدواء، يشعر بشفقة عليها ولهفة لإنقاذها، دقق النظر في وجهها، أصفر باهت مثل صفرة الموتى، والشهداء الذين حملهم على كتفيه في الميدان، أخلى جثثهم من الصفوف الأمامية إلى أمكنة أمينة. شفتاها جافتان، وإن جفافهما غير جفاف الصحاري البعيدة والخنادق القريبة، عروق يديها تبدو نافرة. والدم الباهت اللون يتسكع فيهما.

ياه، وقعت الفأس في الرأس، حدث ما ليس من حدوثه بد الفاتنة حامل، كيف غاب عنه أن يتوقع هذا، من الطبيعي أن يثمر ما يجري في السرير ويكملانه في الشوارع بطنًا منتفخا. زرع هذا الشاب زرعته في رحمها. ويمشي بجوارها مختلاً مثل كبار القادة، يقول كالطاووس: هذا أنا يوشك أن يشير على بطنها ويصيح: هذه نتائج رجولتي وفتوتي واضحة للعيان. رجال أنانيون ينطُّ كل واحد منهم ويجري. وعليها وحدها أن تتحمل الباقي كله. تتعب من الآن

وحتى الوضع. وضع البكر متعب، جنين في بطنها يمتص منها كل ماء الحياة. وهو لا يستطيع أن يتصرف. هل هذا معقول؟!

يرتبط الربيع في ذهنه بضرب العين. وهو وقت زراعة الزهور والأشجار، يبحث عن الجنود الذين جاءوا من الأرياف لكن يتحدث معهم في أمور زراعة الُفلّ والورد البلدي والعنب والليمون، ثم يمنحهم الأجازات بشجاعة

وسخاء لكي يسافرون إلى قراهم. ويعودان وهم يحملون الأفرع والبذور. وهكذا يتحول مدخل المعسكر إلى جنة. يباهي بها وسط رمال الصحاري اللانهائية، التي تزحف ببطء لكي تبتلع حلمه الأخضر.

يقضي أيامه لا عمل له سوى الزرع وإحضار الماء، يزرع الأرض، يحضر له العساكر الفلاحون البذور من الريف. أما هو فبذوره في ظهره. لأن أرضه تخلّت عنه. انسحب وتركها. دنسها العدا. أرضه رحمه. رحم كبير لا يفارق خياله لحظة واحدة، معه في الليل ومعه في النهار.

شتاء يهو، لا يحب الصيف، تزهق روحه منه، يعد أيامه حتى ينتهي وإن كان الصيف يهجم سريعا بعد ربيع

جميل. فهو يمضي ببطء بعد أن يحتل الهواء والأرض. وكل ما يحيط بالإنسان، شمس في النهار وأرض تفح حرارتها المختزنة طول الليل، كانت خيمته في البراح. ولكن الشقة تبدو مثل الخندق الآن. يكبس على أنفاسه عباد الله، بدون حصر ولا عدد، يشعر أنهم يجرون وينامون ويجلسون فوق صدره.

آه من الصيف، يجلس هو بالفانلة واللباس، وهي بقميص نوم على اللحم، حتى بدون الكلوت. تلم شعرها السايح في الهواء. كل طير يرجع لعشه وجميع الغربان تعود إلى أوكارها بعد اللف والدوران. وهما أيضا يعذبانه بالعودة اليومية. إلى بيت الشجن والقبلات وهمسات العصاري واحتكاك الجسدين لحظة انتصاف الليل.

هو وهي حسن ونعيمة. الشاطر حسن وست الحسن والجمال، التي كان يسمع حكاياتها من فم جدته الأهتم الذي بلا أسنان. الحكايات تشكل يدا تلتف حول رقبته. تمنع حتى الهواء من الوصول إلى رئتيه. تفتح الباب واسعا على الممرات المتعرجة المدفونة في حبة القلب المثقلة بظلال

النساء وكراسي السلطان وحقائب الأموال. مع أنه حرص طوال عمره أن يكون بعيدا عن هذا كله.

يجلس، يحاول أن يتذكر آخر مرة سار فيها في هذا الشارع أو ذاك. أو دار في الميدان الفلاني يعصر ذِهنه، متى شاهد بحر النيل لآخر مرة؟

٥ ــ بوم ساخنة

صيفُ الغبار والسأم بالنهار، والملل طول الليل والسباحة في العرق بين الليل والنهار. صيف وعرق، في طريق العودة لن يشما سوى رائحة عرقهما يبتعد كل منهما عن الآخر. يهربان من هذه الرائحة. وفي الصباح لن يتمسح كل منهما في الآخر لكي يشمه.

صيف المعسكرات جميل. اللباس الصيفي يهفهف بعد التخلص من الزي الشتوي. في الليل يحلو السمر في المعسكرات. يصبح الصيف حصيرة واسعة. كل مكان سرير نوم. والتمشي والتسكع ساعة الأصيل حول المعسكر كان نزهة نادرة. التمشي والتسكع؟؟ إنه لا يجرؤ على مجرد

التفكير في ذلك الآن. صيف البيوت لا يطاق. والصيف في الشوارع ضجيج متعب.

٦ ــ وفي الختام كانت: بوم

يستمع سيادة اللواء، سيادة القائد. الآن معه الببغاء دائما، والغسالة تأتي سبعة أيام وتمضي. تثرثر وتتكلم وهو وفي أقل الحالات يستفهم. من الآن سيكون هناك حوار معها. يدور حولهما. العروس والعريس. قصتهما من لحظة بدء الحكاية وحتى النهاية. وهل يمكن أن تنتهي مثل هذه القصص العاطفية العظيمة. دعك من الأوهام. لكل أول آخر. وما دامت هناك بداية، لا مفر من أن تكون هناك نهاية. والببغاء اشتراه بعد أن جاءت أيام الوحدة يلقي عليه التعليمات التي لا يعرف على من يلقيها. صفا انتباه. تحية العلم تحيا الجمهورية العربية المتحدة، تحيا جمهورية مصر العربية. كان المقاتلون يرددون كل هذا وراءه. الآن يقوم الببغاء بالمطلوب. وإن كانت الأحرف على لسانه تبدو غريبة.

كان يتحدث ويـردد الببغـاء وراءه. كلمـات عـن الحرب، التقدم والضرب تحرير التراب، الأرض والعرض، وعندما بدأ المجنون رحلته نحو المجهول. وقف أمام قفص الببغاء وسأله:

ــ ملك أم كتابة؟

لأول مرة لا يردد الببغا ءما يقوله، ولكن يرد علـى سؤاله:

ــ ملك.

سأل نفسه: دكر أم نتاية؟ هجوم أم انسحاب؟ سماء أم صحراء أم أرض زراعية؟

الحديثُ مع الببغاء أفضل ألف مرة من الكـلام مـع نفسه، الذي هو المقدمة الطبيعية للجنون.

سأل الببغاء:

ــ تقدم أم تقهقر؟

رد عليه:

ــ الانسحاب النهائي.

تساءل عن أي الرايات سترفع في الأيام القادمة.

سأله ببغاؤه بدلاً من الرد عليه:

ـــمن يرفع الراية البيضاء أولا؟!

قال لنفسه، يبدو أن هذا هو السؤال الذي على كل شخص أن يجيب عنه بنفسه وبطريقته الخاصة.

يصل الضيقُ إلى حبة القلب. يلفها من كل جانب حاول أن يغير الموضوع.

قال:

ـحب.

ولكن الببغاء صمت.

قال:

ـــشجار.

لم يقل الببغاء شيئًا. نخسه بيده:

ـخصام.

ضربه هذه المرة، ولكن الببغاء تحمل الضربات واعتصم بالصمت قال:

ـــفراق.

وعندما لم يرد عليه هذه المرة أيضا. فك باب قفص الببغاء رماه على الأرض. صعب عليه، حاول أن يرفعه من على الأرض. ويعيده إلى مكانه ولكنه عجز عن هذا، كان

عزاؤه الوحيد. أنهم فعلوا معه أبشع مما جرى للبغاء على الأقل هو لم يقصر في عمله ولم يمتنع عن القيام به. ولكن البغاء أضرب عن العمل فجأة. عميل. خانه لصالح الأعداء الذين يسكنون الشقة المقابلة أما هو فلم تعرف الخيانة طريقها إليه أبدا. الوطن هو الذي يرفض ولاءه الآن.

ليل ولا نوم. إن أغمض عينيه لابد أن تأتيه في المنام شديدة الوضوح كان يتخيل في يقظته أنه ستجري وأنه لن يتمكن من اللحاق بها أبدا يحاول الجري فيكتشف أنه بلا قدمين. وإن اقترب منها وحاول الإمساك بها لن تكون له يدان.

تمنى ألا تأتي له في المنام أبدا. يكفيه عجز الصحو. هو فعلاً في الحقيقة والواقع له قدم واحدة، لا يعرف أين الثانية فكيف يجري؟ كلما قرر البحث عن القدم الثانية شغله أمر ما. ما من ليلة نام فيها إلا وهو ينوي أن يذهب في الصباح للباحث عنها. وما من صباح يهل على الدنيا، إلا وتكون عملية البحث المؤجلة هي شغله الشاغل. ولكنه في لحظة البدء يطل عليه ما يعطله. وهكذا ينزاح عن قلبه عبء كبير عندما يؤجل الأمر كله إلى الغد وهكذا.

جاءتـــه فـــي الحلـــم، فـــأدرك أن العـــذاب وراءه وأمامه.احترقت المنطقة عن آخرهـا. البيـوت والشـوارع والنسا، كتلة من اللهب. لم يبق على الأرض إلا همـا معـاء، تمكن من إنقاذها في الساعة الخامسة والعشرين، مثلما كانت حواء وآدم عند بدء الخليقة، ولكنه لن يخرج من الجنة. مـا جرى لن يتكرر معه. لا تفاحة ولا يحزنون.

كان في سباق مع النار. وصل إليهـا قبـل ألسـنة اللهب. قرأ في عينيها الإعجاب والانبهار والحب. يـا نـار كوني بردا وسلام□ا علينا، إنهما عند آخر مكان مـن النـار وأقرب نقطة على الماء.

قالت له: وهبتك عمري الذي انتزعته من بين ألسنة اللهب. إنه لك دون الناس جميعا تختلط نار الميدان بنيـران الحلم، ولكن حبيبة الفؤاد كانت على يديه.

لا يستطيع الهروب من وجع الذكرى. أسراب الحمام المسافر، فوق الأرض التـي أجبـر علـى تركهـا وراءه، استباحتها أقدام الغرباء، يمسك بورقة يرميها في الجو. ينتظر حتى يرى إن كانت هناك رياح أم لا. وإلى أين تتجه؟ تتـوه نظراته في سماء الله العالية. طير وحيد في السماء لا يعرف

إلى أين يطير؟ يخيل إليه أن الطير له جناح وحيد، يتساءل: كيف يكون الطير وحيدا وبجناح وحيد في السماء الواسعة.. كيف؟! لم لا يأتي هذا الطائر ويبحثان معا. هو عن قدمه. الطائر عن جناحه؟!

نهارات المعسكرات. يتمشى. يدوس على ظله، لا يفعل سوى رؤية الظلال في حركتها اليومية البطيئة. أما سبع الليل. فلا يرى سوى ظلال النهدين القافزين في الهواء.

الأرض التي أعادها لنا العدا، كيف عرفت أقدامهم الطريق أرض لم نحررها نحن؟ كيف خفقت قلوبهم لها؟؟ كيف ترى أعينهم ذرات الرمال فيها؟ وتصافح هدوء سمائها. ربما كانت قدمه في هذه الأرض، ولكن حرام أن يسترد قدمه من أرض لم تحرر بالدماء. وإنما جاءت عبر مائدة المفاوضات.

مرة لم يبق له سوى الجلوس والتحديق. أنشط ما فيه ذاكرة الضواري والأفيال، يسترجع ما فات ويعيش أخرى ما جرى، يشم حطب عمره الذي قدمه للنيران، ويتحسس رماد أيامه الذي يحيط به من كل جانب يعيش أحلام العودة، والبروجي الذي يعزف نوبة الرجوع، وعلم

الوطن الذي أنزله ذات صباح قبل الانسحاب، هبت نسمة هواء واحدة، فخفق قلبه، لم يعد أمامه سوى الصبر والبحث عن رزقه في الملكوت النهائي.

يجلس، يزفر، يشعر بضيق لا حدود له. لم يبق منه سوى صوته. هذا كل ما بقى له.

يتساءل: هل هذا معقول؟

ينظر إلى الشقة المقابلة ويتساءل:

ـــ متى يتسلل التعب على عظامهما. متى وأين؟!

ينظر إلى القدم الصناعية المركونة أمامه.

ويردف السؤال من جديد:

ـــ متى يعثر على القدم الحقيقية، كيف ومتى وأين؟!

لا آخر الأرض فيها إجابة ولا آخر الأيام تشفي غليله.

معلق على مشنقة السؤال

يتأرجح على عذاب تساؤلاته

لا الموت يأتي.

ولا الحياة أصبحت م مكنة.

أغفى الفارس القديم.

كئيبا

ثم انتهى.

هذا ما قد يقولونه بعدي.

كانت آخر الكلمات التي نطق بها. ولم يرددها الببغاء لأنه كان قد رحل بعيدا.. في الأفق الذي لا أول له ولا آخر.

مجنون

قمت من مقعدي في القطار وعز متُ عليها كي تجلس مكاني. كان الزحام فظيعا، وانحشار الخلق يخلو من الإنسانية. وهل في التزاحم إنسانية أصلاً؟ الإنسانية الوحيدة هي أن يخلو الإنسان إلى نفسه، بعيدا عن الآخرين وتطفلهم عليه.

فوجئت بنظرات الناس غير المصدقة البعض قالت نظراته. إنني مجنون وأبله. وهي جلست في المكان الذي خلا بوقوفي. ومر بعض الوقت. الذي طال أكثر من اللازم في تصوري. قبل أن تنظر إلي قائلة " عاجزة عن الشكر " تمتمت قبل أن أقول لها " دا أقل من الواجب يا هانم ". وهي ضحكت عاليا هانم؟ " جبر الخواطر على الله ".

كنا على مشارف مصر أم الدنيا. وكان قطار الصعيد شايلا ومحملاً فوق سقفه وفي نوافذه وعلى أبواب عرباته، وكل هؤلاء يمنعون حتى الهواء عن الذين استكنوا في جوفه، أناس من كل لون وجنس وصنف، يتوف القطار فيقذف بهم، وكأنه يتجشأ بعد أكلة دسمة، يسلمهم للأرصفة، ثم يبدأ في

الانسحاب نحو المخزن. قبل أن يفكروا في العودة إليه من جديد.

الآن فقط، فاجأني جمالها الفريد، والضوء القلق المنبعث من عينيها. أشحت بوجهي فورا مؤامرة من الخصوم، هم الذين زرعوها في طريقي حتى تصرفني عن الهدف العظيم الذي جئت إلى هنا من أجله هي شيء عذب لم ألتق به من قبل، ولكن البر مليء بمثيلاتها، أما الغرض فإن لم يتحقق في هذا اليوم، لن أجرؤ على التفكير فيه سوى بعد عام من اليوم.

يداها صغيرتان، وأصابعها طويلة. ولرقة ونعومة جسمها بريق أراه واضحا وفي وجهها ضوء خفيف بدا لي أنه ينساب من أعماقها.

وقفت في مواجهتها في القطار. كانت أمامي، وكنا كجنديين في الميدان يخفي كل منهما سلاحه وراء ظهره. ذكرتني بالسلاح الذي سأنفذ به مهمتي. لم يكن له وجود معي. توكلت على الله وكفى. قلت عند بداية الرحلة، نبل الهدف يكفي، قالوا لي إن الله معك. ومن معه الله لا يحتاج

إلى سلاح معه، إيماني سلاحي. كان من الصعب علي الحضور ومعي سلاحي.

في الحلم الذي رأيته ليلة الأمس. ما إن كنت في مواجهة عدوي وعدو بلادي وخصم ديني رغم لقب المؤمن الذي يسبق اسمه. حتى وجدت السلاح في يدي. لا أعرف من أين أتى؟ ولكنه كان بيدي.

الشهوات عارضة والرغبات زائلة. ولا يبقى سوى ما هو منقوش في حبة القلب، لن يعود سوى برأس المجنون، الطريق إلى المكان الذي أخذوا أمي رهينة فيه يبدأ من هنا، ومن هذا البندر الكبير سأعود وهي معي.

سألتها ماذا تعمل؟ فقالت إنها وصيفة سيدة البر الأولى. توقفت الضحكة في حلقي. لم أصدق. لأول وهلة، ولكني سألت نفسي: ولم لا؟ يضع سره في أضعف خلقه، إن كان هذا حقيقيا سأعتبره أحسن فأل وقف في طريقي هذا اليوم.

تقترب مني فيزداد خطرها علي، لأفرغ من مهمتي أولاً، لكن هل هناك مانع من بعض الترويح عن النفس قبل

أن يأكلها التعب من الداخل؟ الآن فتنة وجمال. وبعد ساعات يكون الأمر الذي تهون الدنيا من أجله.

ثمة جاذبية تنبعث منها، لها فعل السحر، واحدة من بنات البندر. بنت إبليس هي: سواء رأيتها بعيني الصعيدي. أو نظرت إليها من وراء ظلال ذقن رجل دين. فلا أملك في كلتا الحالتين، سوى هذا الوصف " ابنة إبليس ".

الصدق، الصدق، أن أقول. إنني اشتقت إليها. هفت روحي نحوها، غرم كل اعتراضات ضميري على شكلها الصارخ، وزينتها المتبرجة، وبهرجة الألوان في ملابسها ولأنني إنسان خشن، لا أعرف كيف أرض الكلمات بجواره بعضها حتى تعجب النساء، قررت أن ألم كلامي معها. أن أقلل ما أقوله لها ما أمكن. أستمع أكثر مما أقول.

في الليل حلمت أنني أقف على جثة الذي فعل بنا كل ما فعل، وبيدي سيف تقطر منه الدمار، هل هي إشارة سماوية لي، أنني انتدبت لهذه المهمة. أن أقتله. ما أضخم الكلمات. أنني لم أفكر في ذبح فرخة في حياتي، فهل أقتل الفرعون. قالوا في بلدتنا من قبل إن أضخم الأفعال، يقوم بها أبسط الرجال.

لم يكن لنا من نصير سواه. فمن الذي قلب السحر؟ على الساحر؟ يوم مجيئه هللنا، قلنا ها هو زماننا يهلّ علينا. سمعت الأمير يقول: مات الذي أكّلنا المش، وجاء من لا تفارق المسبحة يمناه، فأهلا به وسهلا. ولكن بعد سنوات، قال عنه إنه هو الذي علمنا الغش، عندما بدأت رحلتي هذه. لم أكن أعرف من الذي يقف وراء عتبة المجهول وماذا قد يفعل بنا عندما تؤول إليه الأمور.

كلمتني عن البلاط، والسكرتارية، ومخزن الهدايا، والهدايا أنواع، إلكترونية، ومن النسيج، ومنها ما يؤكل وما يشرب، وما يتم شمه، قلت إن البنت تريد أن تأكل بعقلي حلاوة، أنا الرجل وهي المرأة. ولابد أن أسبقها في أي ميدان مهما كان.

مباراةٌ في فتح الدراع، قلت لها إنني رأيت مخزن الهدايا هذا. بل وحصلت على تليفزيون ملون ٣٧١ بوصة. اتسعت عيناه من الدهشة وعدم التصديق. قلت: إنني كنت ضابطًا كنت أعمل في الحرس الخاص، فاجأتها بسؤال مباغت: هل كانت تُشاهد جولات المؤمن في التليفزيون؟ تلك الجولات التي كانت تتم على الهواء. وتعاد أكثر من مرة. في

اليوم الواحد كنت أنا الذي أقف على يمينه في كل مرة يخرج فيها من القصر. كنت معه. ولكن مشكلتي، أنني رأيت أكثر مما ينبغي، وسمعت أكثر مما تتحمله أذناي. بل أذنا أي إنسان على الأرض.

ــ ومتى تركته؟!

ابنة حواء لن تتركنا نصل إلى بر الأمان، وننجز المهمة التي جئنا من أجلها. لا داعي لكل هذه الأسئلة وإلا تركتها. مع أن وجودها معي يغطي المهمة ويسليني ويحميني من التوتر المهول الذي يقع كلما اقترب موعد المهمة المقدسة. ولحظة تنفيذها.

تركته عندما سمعته بعظمة أذني، وشاهدته بأم عيني. وهو يقول لأحد كبار الصحفيين " أنا غول. ولن يستطيع أحد أن يهاجمني لا من العرب ولا من الجرب ". خرجت عن حدود دوري وسألته: العرب ومفهومه ولكن من هم الجرب سيدي؟!

قالها لي بحرارة: المصريون.

كان المؤمن يقول بعيدا عن التليفزيون، الذي كان سلاحه الأول والأخير إنه يحكم شعبا لا عمل له سوى الأكل

والجماع والتبرز. كل واحد له معدة مثقوبة. فمن أين يدبر لهم ما يأكلونه؟

كان في الصباح الباكر. في القناطر الخيرية. يصحو من نومه، ويقف في الشرفة ويخاطب النيل.

كان يقول:

ــ صباح الخير يا نيل.

وكان يكمل قائلاً لنفسه:

ــ إن العظماء لابد أن يصبحوا على بعضهم.

كان لا يحب التصوير إلا وهو واقف أمام الأهرامات أو أبو الهول. كان يقول عند الأهرام أنا هرم مصر الرابع. أما أمام أبو الهول فكان يردد، الفارق بيني وبين أبو الهول القديم أنني ناطق وهو لم يعرف النطق أبدا ".

كان غضبه يصل إلى ذروته كلما سمع عن مشروع يتم تنفيذه. لكي يتم نطق أبو الهول، ويحكي، ويقول إن هدف المشروع الوحيد هو القضاء على صيتي الذي عم البلاد كلها، وكان يهمس في آذان الأجانب عندما يصفو الحال بينه وبينهم: المشكلة أنني أحكم شعبا من الأقزام سألتني:

ــ نحن إذن من الأقزام.

أمسكت بيدها وقلت:

ـــ بعد قليل سنصير من العمالقة.

اقتربت من نهاية رحتلي. الإصبع على الزناد والقلب يدق. قلت لمن اعترض طريقنا: لقد حضرنا معا من آخر مكان في البر، من أجل الفرجة، فهل تمنعنا؟ هل هذا معقول؟ كان الحارس في سن والدي. رق قلبه لحالنا مد يده. طبطب علينا. وقال: الدار أمان تفضلا.

وأنشدت في داخلي أبياتا من الشعر العربي القديم عن الفرج بعد الشدة. واليسر بعد العسر. ولم يفارق إصبعي الزناد حتى كان ما كان.

للنَّهارِ بقيةٌ

عندما تلاقى القطاران، النازل من الصعيد، والطالع من بحري، في وقت واحد تقريبا، وهي مصادفة لا تتم إلا يكون هناك تأخير أو ظروف طارئة.

استفرغا من داخلهما، عددا لا يحصى ولا يعد من خلق الله، من يرى المنظر لابد أن يتساءل: كيف كان ينحشر كل هؤلاء في قلب القطارين؟

جلاليب وبدل. عفاريت وقفاطين. عمم وبرانيط وطواقي، والنساء من الحجاب إلى الشفتشي، مرورا بكل ما يتصوره الإنسان من الملابس، كرنفال عجيب. وإن كان النازلون من قطار الصعيد أكثر خشونة وأقل ثراء، حفر الزمان على وجههم خطوطًا، في حين أن الطالعين من طراوة بحري أقل بؤسا.

ينصرف خلق الله كل لحال سبيله. يصفصف الرصيف على المتسكعين والشيالين والذين أكل الانتظار وجوههم. وهم يقفون هكذا لأنهم في انتظار القطار الذي يأتي ولا يأتي.

كان نازلاً من قطار الصعيد الجواني. وإن كنت أنا آتية من بحري. ركنت جسمي لسور من الحديد يفصل رصيف الصعيد عن تل طوار الإسكندرية. كل الذين نزلوا من القطارين يعرفون أهدافهم. إلا أنا وهو.

ربما كان يبحث عن شخص ينتظره. جائز أن يكون على موعد، وصاحب الميعاد البندري المصراوي لم يحضر إليه. التخمينات لا نهاية لها. يحدث أحيانًا أن تكون لحظة الوصول إلى مصر بداية الحيرة. وليست آخر المطاف، هكذا حال الصعايدة وأولاد الفلاحين، عندما يصلون إلى البندر الكبير لأول مرة دائما.

وجهه غابةٌ من الشعر. الجلْباب أبيض. وفي القدمين لِبْدة بيضاء سوقي. والرأس عار والشعر منفوش. وقد التفّ على شكل فتل من كثرة الإهمال والعرق.

هو الذي تحرك أولاً ولكن ليس باتجاهي.

اقترب من أقرب بائع له:

ـ**السلام عليكم!**

قالها بحماس وبلغة فُصحى مثل أبطال التمثيليات الدينية والتاريخية التي يعرضها التليفزيون. ولكن الرد كان

فاترا. بصقة البائع في وجهه، والبائع انطفأ حماسه عندما اكتشف أنه يسأل قبل أن يكون زبونًا، أي لن يشتري:

ــ وعليكم مثلما قلتم.

سأله:

ــ دلني يا أخي أين الطريق إلى مدينة ناصر؟

استمعت باهتمام. الرجل مثلي غريب عن المدينة الكبيرة ويبحث عن عنوان يعرفه. ليس مكتوبا في ورقة معه. يقوله له من ذاكرته.

حاله أحسن من حالتي. فأنا لا أعرف عنوانًا أذهب إليه. ما أكثر دهشة الغريب. عندما لا يكون معه عنوان يذهب إليه في بلد مثل البرازيل.

والبائع الذي سمع السؤال لم يرغب حتى في الرد عليه. أشار لمكتب بعيد. كل الناس تسأله فالبائع مخه ليس دفترا. وهو سريح على باب الله يقف هكذا. حتى يحصل على رزق أولاده.

تركه الغريب وهو يدمدم:

ــ أرض الله واسعة.

سار فتحركت وراءه. سرت بعد بمسافة، لم يكن لدي سبب واحد يدفعني لأن أقطره. ولكن هذا ما جرى " ضل راجل " قلتها لنفسي. حتى وإن هذا الرجل يتكلم بالنحوي. والسبحة في يده تصل إلى الأرض. ووجهه لا يكاد يظهر من وراء الشعر الكثيف. فروة شعر رأسه المنفوش، تصل إلى شعر دقنه الذي لم يقترب منه موس منذ سنوات. لدرجة أنني لم أتبين أن كان شكله مقبولاً أو منفرا وإن كان طاعناً في السن أو شابًا أو في منتصف العمر.

الذين نزلوا من قطارها، والذين خرجوا من جوف قطاره مم أ يسدون عين الشمس. تصورت أن أمامهم ساعات وساعات حتى ينصرفوا من المحطة. ولكن الأرض انشقت وبلعتهم في دقائق. قبل أن تفيق من دهشتها وتخرج من

استغرابها. التصقت نظراتها به حتى لا يتوه منها مثلما ضاع كل الذين كانوا في القطار. طوال الطريق تعبت من الاختيار. وها هي ليس أمامها سوى هذا الشيخ الذي لا تعرف مدى نفوره من جنس النساء.

لو كانت في حياته امرأة. أم أو أخت أو زوجة أو عشيقة ما تركته هكذا أبدا للمراة لمسات لا تُخطئها العين. تظهر واضحة على الرجل. مقطوع من شجرة، هذا هو وجه الشبه الوحيد بيني وبينه.

بدا لها يكلم نفسه، شاهدت شفتيه تتحركان. وتفتفه تخرج من فمه، وزبد يحيط بشفتيه، مجنون أم به لُطف أو مخاوي؟ عندما شاهدت ـــ من جديد ـــ المسبحة في يده. قالت إنه يسبح بعدد حباتها. لا يريد أن يضيع لحظة واحدة من يومه. بعيدا عن العبادة سيكون مصيرها الطرد، وربما الفضيحة في قلب المحطة التي لم تر محطة في حجمها من قبل أبدا.

ستسأل هي أيضا عن مدينة ناصر. وأمرها إلى الله. وهل لديها مكان آخر تسأل عنه؟ على باب المحطة الخارجي، وجد من يستمع إليه ويرد عليه. أشار لمحطة الأتوبيس الذي يصل إلى مدينة ناصر. ولم يفته أن يقول إن التاكسي موجود.

ـــ لا شكرا.

لو كان مظهره غير ما شاهدته لقالت إنه إما بخيل أو حريص يده لا تطول أجرة التاكسي التي لا تعرف مقدارها. وما معها من أموال قليلة سينتهي قبل أن تغرب شمس هذا اليوم ويأتي ليله.

اقتربت منه. توقفت فجأة واستدارت، فخبطت فيه، مد يده وأبعدها واستعاذ بالله، كان يتلفت حوله دائما. كأنه إما مطارد أو مراقب أو يخشى من خطر ما.

ـــ يا دي الندامة ما كانشي قصدي.

كان صوته عاليًا وهو يرد عليها:

ـــ وهل أنا الذي قصدت؟

وقفا في مواجهة بعضهما قليلاً من الوقت. تسلل الارتباك إليه بصورة مفاجئة. حسب حساب كل الأمور في رحلته إلا هذه. لديه استعداد لكل احتمال سوى واحدة من بنات البندر. الذي حضر إليه من أجل مهمة محددة. يعود بعدها من حيث أتى.

شعر بضيق يقرأ الكتاب من عنوانه. ويعرف اليوم من لحظاته الأولى. من الذي زرعها في طريقه حتى تحول بينه وبين المهمة التي جاء من أجلها؟

ركّزت كلّ قواها في عينيها ونظرت إليه، سبلت رموش عينيها وسألته عن الطريق إلى مدينة ناصر التي لم تكن تعرف سوى اسمها. قال لها إنه ذاهب إليها. وإن كان لا يعرف مكانها. دوغري وصريح ولا يلف ولا يدور أولى حسناته في الخطوة الأولى معه. ولكن ماذا عن سيئاته غير غابة الشعر حول وجهه. وانصرافه عن الدنيا والناس؟

قال لها: إنه سيفطر ثم يذهب إلى مدينة ناصر. موعده هناك بعد صلاة الظهر. والوقت أمامه طويل. والمواصلات هنا سريعة وكثيرة. الحال أحسن ألف مرة من الوضع عندهم. رفع يده التي تتدلى منها المسبحة لكيس يشير إلى محطة الأتوبيس، الذي يقلُها إلى حيث تقصد. قالت إنها يمكنها انتظاره هنا حتى يفطر مع أنها لم تفطر هي الأخرى.

أضاءت المساحة المحدودة والصغيرة التي تبدو من وجهه، ابتسامة باهتة، كانت الأولى، منذ أن رأتْه. لم يقل شيئًا ولكنها حاولت أن تفتح حقيبة يدها. قالت إنها ستدفع نصيبها في الإفطار. مد يده. منعها من ذلك:

ــ عيب يا حرمة.

تلامست يده مع يدها. فشعرت بتحنان غريب. استراحت لملمس يده. وسعدت بكلامه، ونظرت في الأرض متصنعة الخجل. الذي كانت تشعر به عندما كانت عذراء. قبل أن يحدث ما حدث ويجري ما جرى.

اشترى طعاما من أكثر من بائع ولفه في ورقة أخذها من البائع الأخير، قال لها وهما يمشيان معا. إن المطاعم هنا غالية. وإن كان لا يعرف أسعارها بالضبط. فضلاً عن عدم النظافة. وكذلك فإن أهل هذا البلد الكبير لا يعرفون الله ويسرقون الكحل من العين.

تذكرت أن عينيها متعبتان من السهاد والسهر.، وقالت إنها بعد الإفطار ستزين نفسها على مهلها وراحتها. كان يحدثها. ثم ينصرف عنها. يبدو أنه يتحدث لأناس مجهولين لا تراهم، أما هو فإنه يستمع إلى ما يقولونه، أو ربما يكلم نفسه، وإن كانت لم تتبين من الغمغمات ما يمكن فهمه.

استطاعت أن تلملم حكايته المتناثرة من هلوساته، من الصعيد الجواني هو. جاءت كبسة على بيتهم. كانوا يبحثون عن شقيقه الأصغر.

الذي لم يكن موجودا هرب قبل حضورهم للقبض عليه. لا يعرفون مكانه. لم يصدقوا. أخذوا أمه الكبيرة في السن رهينة عندهم حتى يسلم أخوه نفسه.

كل هذا كان من السهل أن تفهمه. الذي لم يدخل عقلها قوله. إنهم هم الذين أعطوه السلاح منذ سنوات وبسطوا عليه حمايتهم. فما الذي جعل حلفاء الأمس أعداء اليوم؟!

قال لها وعيناه تلمعان كما تلمع أعين المجانين وهو يكز على أسنانه:

ــ لن يشفي غليلي سوى رأسه.

قال لنفسه:

ــ المغرور يسعى نحو حتفه. ويجري باتجاه منيته وسأسجد الله شكرا لو كانت على يدي.

قال للهواء حوله:

ــ سمعنا كلامه، وعاينا فعاله، فها لنا ما جرى.

قال:

ــ عقله يشهد عليه لا يشهد له.

لم تفهم من كان يقصد بالضبط. كل ما وصل إلى ضباب إدراكها. أنه يريد أن يقتل أحدا من الناس. ولكن من هو؟ ولماذا يريد أن يقتله؟ فقد ظل ذلك بعيدا عن فهمها.

قالت له:

ــ الصلح خير والتفاهم أحسن.

سهمت، سرحت. هل تحكي له حكايتها وتقص قصتها؟ وإن فعلت هل تقول الحقيقة فيهرب من وجهها، ولا تراه بعد ذلك؟ أم تقول كلاما " كدب في كدب ". وإن كشفها تقول إنها كانت تضحك. يبدو أنه سيأخذ كلامها على الجد. لقد أخذ الدنيا مقاولة شقا.

وجهه لا يبتسم حتى للرغيف الساخن الخارج لتوه من الفرن. ما أسهل الكذب وما أصعب الصدق.

في كل مرة تحكي حكاية، لا تعرف من أين تأتي بها. ولكن المهم في كل مرة، هو العثور على خيط الحدوتة الأول. الباقي يأتي من تلقاء نفسه. وبدون أي تعب أو عناء منها، فضلت الصمت. لماذا تتعب نفسها وترمح نحو المشاكل.

قال لها، بعد أن أحضر كوبين من الشاي من نصبة قريبة من المحطة:

ـــ والأخت بالجودة منين؟

أرض الله واسعة، لماذا يبدو مستعجلاً على الهم. الذي يملأ كل ركن من أركان نفسها.

وجدت الكلمة الأولى بسهولة:

ـ المنصورة.

ـــ أجدع ناس.

غمزت بعينها:

ـــ ونسوانها.

كورت أصابعها وقبلت أطرافها، تعبيرا عن الإعجاب الشديد.

ارتبك ولم يعلق.

قالت:

ـــ أصل بذرتهم مخلّطة

بان الغضب على وجهه:

ـــ جدودنا هم اللي قالوا كده، هو أنا كنت وياهم.

سهم وخاطب الفضاء حوله: " أعجبته نفسه فتكبـــر " هذه المرة فقط اكتشفت أنها تجلس أمامه، فاعتذر لها، بـأن حاله ليست على ما يرام.

قال لها بعد فترة صمت:

ــ الغريب للغريب عزوة. نتعكز على بعض؟

نظرت له بعرفان بالجميل، لم تستطع أن تُخفيه عنه احتارت ماذا تقول؟

ولكنه هو الذي تكلم، قـال إن طريقـه خطـر، وإن المشي معه يؤدي إلى التهلكة، قد يصل الأمـر إلـى حبـل المشنقة. خبطت صدرها " الشر برة وبعيد ".

لابد أن يوضح لها الأمر. وهي التي مـاذا سـتفعل بنفسها ويمكنها أن تمشي " ويا دار ما دخلك شـر" ولكـن بشرط وحيد. سرية ما سيقوله لها. إن رددت الكلام، ولو مع نفسها. من الأفضل لها أن تنطق الشـهادتين وتجلـس فـي انتظار الموت المؤكد.

مشت عروق الجدعنة في جسمها. قالت وهي تتذوق طعم الكلمات قبل النطق بها:

ــ أنا سترك وغطاك.

قال لي إنه أدهم الشرقاوي، فأدركت أن فـي عقلـه لطفًا، أكد أنه أدهم ولكن من الصعيد. أدهم الذي يغنون له في الراديو كان من بحري. ولكنه لن يضـرب الإنجليـز فقـد رحلوا. ولن يأخذ من الإقطاعيين فالقدامى لم يعد لهم وجود. والجدد اختلف شكلهم. ثم إن الغلابة ــ الذين من المفـروض أن يعطيهم ما يأخذه من الإقطاع ــ أصبحوا أكثر من نجـوم الليل ورمل الصحاري وذرات الغبار.

بعد أن قال لي إنه يعرف هدفه جيدا. سألني فجـأة. إلى أين يقودنا هذا الجنون؟ تصنعت الضحك. لأني لم أعرف الإجابة عن سؤاله. وأوشكت أن أقول له تكلم يا عاقل عـن المجانين.

سألني من أريد أن أكون. وقبل أن أقول لـه نصـفه الحلو، تفتق ذهني عن اسم جديد، إن كان هو أيوب المصري فأنا ناعسة سواء رغبت في هذا أم رفضت. وإن كـان هـو أدهم الشرقاوي فعلي أن أختار زبيدة الإقطاعيـة؟ أم بينـت عمه المسكينة، أم الغجرية التي أحبته بصدق حقيقي. لأنها لم تكن تريد منه أي شيء حب حقيقي بدون هدف أو غـرض.

خفت من الاختيار. بما اخترت فأوقعت نفسي في الغلط. قلت له.

ـــ اللي تشوفه أنت يا خوي يبقى كويس.

يبدو أنه أبو لمعة. ولكنه يفشر في أذني، وأبو لمعة الأصلي كان يفشر في الإذاعة فقط. ولكن لن أتركه يفشر منفردا. قلت له: إنني سمعت بطبلة أذني السيدة الأولى تقولك أنا جان دارك وتشير إلى شوارع الجيزة وتقول: إن هذا الشعب لن يفهم أبدا الخدمات الجليلة التي قدمتها له. لقد سبقت زماني. ولابد أن تمر سنوات طويلة حتى يدركوا عظمتي. قطر الندى لصة، وشجرة الدر محتالة. وحتشبسوت أسطورة وهدى شعراوي وقفت ضد زواج ابنتها ممن تحب في المحكمة. أنا الزعيمة الأولى والأخيرة. لم يكن هناك قبلي ولن يأتي بعدي أحد. كانت تقول عن الناس إنهم رعاع. والغوغاء لا يفهمون، وعندما كنا نصبح بمفردنا. كانت تزهو بنفسها وتقول: لولاي ما حكم البلاد أنا التي أدخلته التاريخ. وإن كانت لم تقل أبدا إنها قادرة على إخراجه منه.

في مدينة ناصر، ما إن سمعنا أصوات إطلاق النيران حتى رقص مثل المجنون. صاح بعلو الصوت إنه

القاتل، أرغى وأزبد واستمر يصيح حتى أتى الحراس، ووضعوا الكلبشات في يديه.

حمدت الله أن أحدا لم ينتبه إلى أنني كنت معه. وعندما تذكرت أنه لا يعرف حتى اسمي. حمدت الله من جديد أن رجلي لن تأتي في حكايته.

الباقي أمامي، حكايتي أنا..

ارتعاشات الروح ــ محضر ثانٍ

عدت من الجولة وما عدت. تجولت وما رأيت شيئًا، عدت من رحلتي صفر اليدين. ومطلوب مني الآن كتابة تقرير عن الرحلة. والأهم منه موافقتي المبدية على البدء في المشروع، ثم كتابة السيناريو قبل أن يبدأ التنفيذ.

رأسي مزدحم. لا أعرف من أين أبدأ. وإلى أين أتجه. ماذا أكتب؟ وأي الأمور أترك؟ وأيها أهمله؟ حيرة ما بعدها حيرة. يقولون إن المعاصرة تفسد كلّ شيء. لابد أن تمضي فترة زمنية بيننا وبين الحدث الذي نكتب عنه، ونحاول أن نتمثله ونستوعبه ونهضمه، ثم نصبح لدينا القدرة على إخراجه فنًا جميلاً.

ما زالت رأسي يطن. والأصوات الصاخبة تملؤه.

ماذا أفعل؟! اتصلت بالمدير. طلبت منه مهلة من الوقت لكي أتدبر أمري. ولكنه لم يفهم ما أقصده. قال لي إن هذه المهلة يمكن مناقشتها ولكن بعد القبول بالمهمة، القبول أولاً ثم نناقش قضية التوقيت. قلت له صادقة إنني لم أحسم قبول الأمر بداخلي.

الأمر في غاية الصعوبة. رفض ذلك تساءل: أين الصعوبة في الحكاية أصلا؟ إن الأمر في غاية البساطة والعفوية. هل تقبلين أم لا؟ الأمر كله لا يتعدى الإجابة عن مشروع السؤال البسيط هذا.

قلت له، ليت الأمر كان سهلا هكذا.. أخذنا الحوار بعيدا... ودون أن أدري، وجدت نفسي أعتذر له عن المشروع كله، ودهشتي لم تكن من الاعتذار بقدر ما جاءت من سرعة تقبله له، وشكري عليه، وأغلق التليفون في منتصف جملة كنت قد بدأتها.

قلت لنفسي. إن كان قد انتهى بالنسبة له يا بخته.

إن الموضوع كله يبدأ معي الآن.

القاهرة

مدينة نصر ٧

أغسطس ٤٩٩١